محمد جلال عباس

المد الإسلامي في أفريقيا

المختار الإسلامي

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. محمـــــد ديـــــاب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

المدّ الإسلامى في إفريقيا

محمد جلال عباس

المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ١٧٠٧ ـ القاهرة

الطبعة الأولى
١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

انتشر الاسلام فى القارة الافريقية انتشارا واسعا فى شمالها وشرقها وغربها وفى أجزاء من وسطها وجنوبها ، وبلغ انتشاره فى القارة درجة أصبح معها المسلمون يشكلون نسبا كبيرة من السكان فى جميع انحائها كأغلبيات عظمى أو أغلبيات كبيرة أو أقليات تتراوح بين نصف السكان وأقل من عشرهم فى بعض البقاع .

وكان لانتشار الاسلام كدين وطريق للحياة أثره فى الحيـــاة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لشعوب القارة كما كانت له قوته الثقافية والحضارية التى بها استطاع أن يخلق كيانا ويسهم فى خلق جانب من الشخصية الافريقية ويحقق فيما بين شـعوب القــارة بعضها البعض ، وبينهـــا وبين غيرها خارج نطاق القارة صلات متعددة الجوانب .

وكان للوجود الاسلامى فى القارة الافريقية دوره فى مواجهة الاستعمار ، فبينما كان الاستعمار يتسلل بخطواته الاولى الى القارة وقف الإسلام يقاوم ويواجه هذا التسلل ، وحينما انتصرت الصليبية الاستعمارية وتمكنت من السيطرة على أجزاء القارة ظل الاسلام عقبة كأداء تحول دون استقرار الاستعمار فى القارة ، وحينما بدأت حركات التحرر واستقرت الثورة ضد الاستعمار لعب الاســلام دوره فى الاسهام فيها بفاعلية ساعدت على انتصار التحرر وتحقيق الاستقلال .

وطوال هذا الماضى العريض للاسلام تعرض لتطورات سياسية واجتماعية كان لها أثر واضح فى كيان القارة وشعوبها وحضارتهم وثقافتهم ، كما تلقى مؤثرات خارجية كانت لها فعاليتها فى وجوده وأوضاعه .

وجاءت أعوام الاستقلال وللاسلام وضعه الذى اتخذه نتيجة لتطوره الذاتى وبفاعلية المؤثرات الخارجية والداخلية مكونا صورة حاضرة حيث لعبت الشعوب الافريقية المسلمة دورها فى مواجهة

مشاكل الاستقلال السياسى والتنمية الاقتصادية والاجتماعية وفى نفس الوقت أخذت تواجه باسلامها ما يقيمه الاستعمار والصليبية والصهيونية والشيوعية من وسائل المحاربة وخطط الاضعاف ومحاولات القضاء على وجوده ، تلك المحاولات التى تعتبر استمرارا للصليبية فى أذهان ووجدان بعض القوى العالمية وعملائها سواء فى داخل القارة أو خارجها .

وفى هذه الدراسة التى اقدمهـا للقارىء العربى والقارىء الافريقى محاولة للتعريف بالاسلام فى هذه القارة ، ماضيه وحاضره ولئن كان تركيزنا فيها على غرب وشرق افريقية فانما كان الدافع الى ذلك عاملين رئيسيين :

الأول : قلة المعرفة بالاسلام فى هـذه المناطق على الرغم من اهميتها كجزء من العالم الاسلامى .

الثانى : ان الاسلام فى هذه المناطق هدف يتعرض لاخطار أشد مما تتعرض له فى أجزاء أخرى من بلاد العالم الاسلامى .

ونهدف من هذه الدراسة الى جانب توضيح الحقائق عن واقع الاسلام فى افريقيـة الى الرد على بعض افتـراءات المستشرقين والمبشرين والكتاب الغربيين التى طالما اتجهت الى اساءة سمعة الاسلام والتشكيك فيه والغض من أثره الحضارى ودوره فى تطوير المجتمع ، وادعاء عدم صلاحيته للحياة والتطور فى تلك البلاد .

وقد قسمنا دراستنا الى خمسة أقسام رئيسية هى :

أولا : انتشار الاسلام فى القارة وعوامله الجغرافية والاجتماعية والسياسية والفكرية .

ثانيا : الحضارات التى قامت بالاسلام فى غرب القارة .

ثالثا : تطورات الحكم الاسلامى فى شرق افريقية .

رابعا : عوامل البناء الحديث للاسلام ممثلة فى تجمعات المذاهب الاسلامية والطرق الصوفية والحركات المهدوية الاصلاحية والجهاد

خامسا : عناصر الهدم الخارجية من جانب الاستعمار والتبشير والاستشراق .

سادسا : الوضع الحاضر للمسلمين ومشاكلهم .

وكان اعتمادنا فى هذه الدراسة على ثلاثة أنواع من المصادر :

الأولى : الكتب سواء منها القديمة التى سطرتها أقلام العرب أو الحديثة التى ألفها الاوربيون والعرب المحدثين والمعاصرين واقلام الافريقيين الذين كتبوا بالعربية .

الثانية : البحوث والدراسات الخاصة المنشورة وبعض ما لم ينشر منها .

الثالثة : الدراسة الميدانية التى قمنـــا بها وحققنا أثنــاءها مشاهدات عن واقع الحياة الاســلامية وادراكات عن مشـــاكل المسلمين فى حياتهم الحاضرة .

ولقد تهيأت فرص الاطلاع العديدة خـلال السنوات الطويلة التى قضيناها فى جهات متعددة من القارة الافريقية .

وانى اذ أقدم هذه الدراسة للقارىء العربى وللقارىء المسلم لأرجو أن أكون قد اضفت شيئا يكون بمثابة اساس علمى لتخطيط سياسة اسلامية تحمى الوجود الاسلامى وتقوى كيانه فى هــذه القارة المتطلعة الى الحرية الحقيقية والسلام .

كانو\نيجيريا فى ٢٥\٨\١٩٧٥

محمد جلال عباس

الفصل الأول

عوامل انتشـــار الاســـلام فى القارة

انطلق الاسلام كدين وكطريق للحياة من مهبط الوحى فى مكة والمدينة بشبه الجزيرة العربية الى جميع الاتجاهات ومنها الاتجاه نحو الغرب من سيناء والبحر الاحمر وبوغاز باب المندب والمحيط الهندى الى افريقية واتخـذ فى تحركه خطوطا خضعت للظاهرة الجغرافية ، وكان انتشاره وسط الشعوب وتغلغله بين السكان نتاج عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية متعددة ، كما أنه فى حركة مده المكانى وانتشـاره تعرض لمعوقات جغرافيـة وبشرية عديدة كما تأثر فى تحركه الى قلب القارة بالعـامل الزمنى حيث خضعت قوته للظهير الدافع له مما سنتعرض له فى دراسة العوامل المختلفة لاسس انتشاره التى نتناولها فى هذا الفصل ، وهـذه العوامل هى العوامل الجغرافية والعوامل الاجتماعية والسياسية والبيئة الروحية الفكرية .

العوامل الجغرافية

كان العامل الرئيسى الذى اثر فى دخول الاســلام الى القارة الافريقية هو موقعها الجغرافى بالنسبة للجزيرة العربية ويتبين ذلك من الحقائق الأربعة التالية :

١ ــ دخلت أكبر موجة اسلامية الى القارة الافريقية من مدخلها الشمالى الشرقى عبر برزخ السويس حيث تابع سيره على طول الساحل الشمالى الى المغرب الاقصى .

٢ ــ عبر الاسلام منذ بداية عهده سواحل البحر الاحمـر الى

الجانب الافريقى المواجه للجزيرة العربية منذ عهد الهجرة الاولى الى بلاد الحبشة ــ وقد تتابعت بعض الهجرات من بلاد الحجاز الى الساحل الافريقى للبحر الاحمر حيث رست على شواطىء السودان واريتريا .

٣ــ عبر الاسلام خليج عدن حيث حمل الحضـــارمة واليمنيون الاسلام الى سواحل الصومال .

٤ ــ كان الساحل الشرقى المطل على المحيط الهنــدى يواجه الجزيرة العربية التى تقع سواحلها الجنوبية شمال هــذا المحيط ، وقد وفدت المؤثرات عبر المحيط من ساحل عمان وحضرموت واليمن الى سواحل شرق افريقية مع التجارة التى كانت تسير مع اتجاه الرياح الموسمية الصيفية الجنوبية الشرقية والموسمية الشتوية الشمالية الشرقية .

ثم كان للعوامل الجغرافية الاخرى أثرها فى انتشار الاسلام فى مختلف أنحاء القارة ، فبعد أن استقر الاسلام عبر المداخل أخذ ينتشر الى داخل القارة متأثرا بظروف السطح والمناخ ومتتبعــا خطوطا خاصة . تحكمت فيها تلك الظروف الطبيعية .

وقد اتخذ الاسلام منذ دخوله الى القارة قواعد للانتشار أو مراكز للتأثير ، انتشر منها الى المناطق التى استقبلته . ولقــد تكونت مراكز التأثير هذه فى كل من ساحل شرق افريقية وساحل البحر الاحمر وعلى طول محور الشمال الافريقى فى مصر وليبيا وتونس والمغرب .

ومن هذه المناطق أخذ الاسلام ينتشر الى الداخل على النحو التالى :

١ ــ من مصر على محور النيل أخذ الاسلام طريقه الى الجنوب متتبعا مجرى النيل الى بلاد النوبة ومنها اتخذ طريقا طويلا

مع ثنية النيل الكبرى ، وطرقا أخرى تتبعت مجارى وديان الصحراء الى غرب السودان والى ساحل البحر الاحمر شرقا .

٢ ـ على محور الشمال الافريقى بعد أن سار بسرعته الكبيرة حتى المغرب الأقصى أخذ ينتقل عبر الصحراء من ثلاثة مراكز تأثير الى ثلاثة مراكز للقابلين .

(أ) من مركز طرابلس الى منطقة تشاد والنيجر الشرقية .

(ب) من مركز المغرب الادنى حول القيروان فى تونس الى شمال نيجيريا وأواسط النيجر .

(جـ) من مركزى تلمسان فى المغرب الأوسط ومراكش فى المغرب الاقصى الى منطقة النيجر الوسطى والسنغال .

٣ ـ على ساحل البحر الاحمر اضطر الى أن يدور بخطوط انتشاره حول الهضبة الحبشية من الساحل الى الجنوب مكونا الهلال الاسلامى فى منطقة الدناكل ومصوع وجيبوتى وهرر .

٤ ـ على ساحل المحيط الهندى انتشر الى الداخل بسرعة بطيئة وفى وقت متأخر حيث وصل فى القرن التاسع عشر الى أوغندا والى داخل تنجانيقا بل والى المناطق الشرقية للكنغو .

٥ ـ امكن للاسلام ان ينتشر من الساحل الى الداخل بسرعة وسهولة حتى غلب فى جميع بلاد الصومال .

ويتضح مما سبق أن الظاهرات الطبيعية كان لها اثر المتحكم فى خطوط انتشار الاسلام فى مراحله الاولى ويمكن أن نتبين هذه الظاهرات التى تحكمت فى انتشار الاسلام فى كل من شرق وغرب القارة على النحو التالى :



خريطة رقم ١ خطوط انتشار الإسلام في إفريقية

أولا : فى غرب افريقية :

تتبع الاسلام من محور الشمال الافريقى طرق القوافل السابق ذكرها عبر الصحراء حيث تتجه هذه الطرق الى مناطق التقاء الرمال بالمياه ، اذ تصل مجارى الانهار الى الاطراف الجنوبية للصحراء فى مواقع ثلاث :

(أ) الثنية الشمالية لنهر السنغال حيث وصل الاسلام على يد البربر والعرب الأوائل وتكونت دولة المرابطين التى وحدت بين هذا الجزء من غرب افريقية والمغرب الاقصى .

(ب) المنحنى الشمالى للنيجر حيث يصل النهر الى أطراف الصحراء عند تمبكتو وجاو حيث وصلت المؤثرات الاسلامية متعقبة أثر التجار وصعدت منها مع النهر الى بلاد غانة القديمة فى الجنوب وبذلك انتشر الاسلام على يد التجار ومن اقتفى أثرهم من العلماء فى بلاد غانة وبين شعب السوننكه الذى تجمع بعد أن تشرب الاسلام بقيادة اسلامية جديدة وكون أول مملكة اسلامية صرفة فى غرب افريقية هى مملكة مالى .

(جـ) منطقة بحيرة تشاد وشمال نيجيريا حيث هبط الى مناطق المجارى المائية والنهيرات التى تصب فى البحيرة وتكونت حول البحيرة مملكة برنو الكانمية ، كما تكونت فى شمال نيجيريا امارات الهاوسا السبع التى تحولت الى الاسلام .

وكانت المرحلة الثانية من مراحل انتشار الاسلام فى غرب افريقية من بلاد السودان الى منطقة الغابة والساحل ، ولئن كان انتشاره فى المرحلة الاولى عبر الصحراء من مناطق التأثير فى الشمال الافريقى الى المناطق القابلية فى نطاق ساحل الصحراء قد تم على يد التجار والمهاجرين العرب والبربر ، فانه انتشر من مناطق السودان الى منطقة الغابة والساحل على يد عناصر من الشعوب

السودانية التى اعتنقت الاسلام وبخاصة من جماعات الهاوسا والفولانى والماندى متتبعا خطوط الاتصال البشرى فى هذا النطاق .

وفى هذه المرحلة نشطت التجارة عبر الغابة الى الساحل،وحمل التجار المسلمون من الهاوسا والفولانى الاسلام من القطاع الشرقى الاسلامى من كانو وسوكوتو الى وسط نيجيريا وجنوبها وجنوب غانا ، كما قام التجار الفولانيون والمانديون الذين انتقلوا من مالى وغينيا الى أعالى الفولتا وساحل العاج وغانا وليبريا بانشاء مراكز اسـلامية فى المدن التى هبطوا فيها وتجمع حولهم الأهالى الذين سرعان ما اعتنقوا الاسلام وكونوا فى تلك المدن مجتمعات اسلامية ثم بدأوا بدورهم ينقلون الاسلام فى مرحلة ثالثة الى شعوب الغابة مثل اليوروبا فى نيجيريا والموشى فى أعالى الفولتا والأشانتى والفانتى فى غانا والتى أصبح المسلمون يشكلون نسبا كبيرة منها .

ثانيا : فى شرق افريقية :

كانت المرحلة الأولى هى دخول الاسلام الى مدن الساحل على يد العرب اليمنيين فى القطاع الشمالى من السـاحل الشرقى فى الصومال والحبشة والعمانيين والحضارمة فى القطاع الجنوبى من الساحل ، المطل على المحيط الهنـدى ، وبعد أن اسـتقر المقام للاسلام فى سـلطنات المدن الساحلية بدأ ينتشر منها فى المـرحلة الثانية الى الداخل ، فمن زيلع انتشر الى هرر فى جنوب الحبشة ثم وقفت وعورة الهضبة حائلا دون انتشاره الكبير الى قلب الهضبة ومن مصوع انتشر أيضا فى مناطق ساحل البحر الأحمر واريتريا فى منطقة شمال الهضبة الاقل وعورة .

وفى الصومال ساعدت سهولة السطح على احتكاك أهالى البلاد الصوماليين بالمهاجرين من العرب المسلمين فانتشر الاسلام بينهم دون أن يقف أى حائل جغرافى دونه .

اما فى القطاع الجنوبى فنظرا لمواجهة هضبة البحيرات الاستوائية ومرتفعات شرق افريقية للساحل ، فإن الاسلام اتخذ طريقه مع التجار ومن اقتفى اثرهم من الدعاة الى الداخل من تعدين الذهب فى أعالى الكونغو وفى اوغنده . وكان مركز الانتشار الثانى من الجزء الجنوبى للساحل من سوفالا حيث عبر الجبال الى زمبابوا واراضى مملكة مونوموتابا فى جنوب افريقية وتكونت فيهما مجتمعات اسلامية كبيرة .

وكما انتشر الاسلام فى المرحلة الاولى فى غرب افريقية على يد العرب كان دخوله الى شرق افريقيـة على يد العرب كذلك ، اما انتشاره الى الداخل فى المرحلة الثانية فى شرق افريقية فقد كان على يد كل من العرب والسواحيلى وهم العناصر الوطنية التى اعتنقت الاسلام وشاركت العرب فى حمله مع التجارة الى المناطق الداخلية ، كما شاركت المهاجرين المسـلمين من الهنود والملايويين فى تحقيق الوجود الاسلامى فى بعض تلك المناطق الداخلية .

ويجدر بالذكر هنا أن نشير الى أن الاسلام استطاع ان ينتشر ويتواجد وجودا فعالا فى بيئات غير بيئة الصحراء التى نشأ فيها ، واستطاع أيضا أن يثبت صلاحيته للحياة فى بيئات بدوية وريفية وحضرية بكفاءة كاملة خلافا لما يدعيه بعض الكتاب من أنه دين بداوة وكان انتشاره فى مختلف المجتمعات والبيئات نتيجة للعوامل البشرية الاخرى من اقتصادية واجتماعية وسياسية كما سنرى بعد.

العوامل الاجتماعيـة والسياسية

قبيل انتشار الاسلام سـادت فى القارة الافريقيـة ظروف اجتماعية وسياسـية خاصة جعلتها مهيأة لقبول الاسـلام كنظام للحياة ، فقد كانت الحياة القبلية سائدة انبنت عليها طبقيـة صارخة بين العشائر ، اذ كانت كل جماعة تنظيم فى قبيلة وتتفرع الى عشائر واسر كبيرة اوبطون ، وكانت الوحدة الأساسية للمجتمع

هى القبيلة التى تضم فى داخلها مختلف الوان النشاط على أساس من الرئاسات المتوارثة ، وتنبنى هذه الرئاسات على أســاس من التخصص الوظيفى فى الوان النشاط الاقتصــادى المختلفة مثال ذلك : زعيم الارض المتخصص فى توجيه النشاط الزراعى ، وزعيم البقر المتخصص فى شئون الرعى ، وزعيم الماء أو زعيم السمك ، وزعيم الغابة اللذان يختصان بصيد البر وصيد النهر ، وزعيم الحرب ، ورجال التنظيم الادارى ومنهم زعيم القرية الذى ينظم نشاط أهل القرية وعلاقاتهم ، ومنهم معاونى الزعيم الكبير ، وكثيرا ما يكون الزعيم الكبير هو أحد هؤلاء الزعماء حسب نوع النشاط السائد فى المنطقة .

وكانت كل من هذه الزعامات تتركز فى عشيرة معينة او فى بعض العشائر المتميــزة فى القبيلة ويتم توارث المنصب فى داخل هــذه العشيرة وكانت الطبقية واضحة ، غير ان احترام السن ظل المظهر السائد فى المجتمع الافريقى على مختلف مستوياته .

أما النسب والوراثة فقد اختلفا باختلاف أصــول القبائل ، فالنسب الأموى كان ســائدا بين القبائل التى تغلب فيهــا الدماء الحامية ، حيث ينسب الطفل الى أمه لا الى أبيه ويرث الولد خاله أما الزنوج فكان النسب والوراثة عندهم أبويا فى غالب الاحيان .

وكان الصراع قائما بين القبائل المقيمة والقبائل البدوية التى مازالت تتحرك مهاجرة تبحث عن مستقر لها تقيم فيه كما كانت الحروب قائمة بين القبائل المتجاورة لتوســيع المجالات الحيوية لنشاطها الاقتصادى .

وحيث كانت القبلية مســتقرة نوعا ما ، أو حيث اكتسبت العشائر الحاكمة قوة ذاتية وسط القبيلة نشأ نظام الاسر المالكة أو الحاكمة أو ما يسمى فى المصطلح الســياسى بالموناركية التى استطاع بعضها ان يسيطر على مناطق واســعة مكونا ممالك أو

امارات مختلفة . ودخل الاسلام فى شرق افريقية فى وقت كانت فيه موناركية الامهـارا قد تكونت وقويت فى الحبشـة وكونت مملكة مستقرة كما دخل غرب افريقية حيث كانت احدى فروع شعب الماندى وهى السوننكة قد نجحت فى تكوين مملكة شاسـعة هى مملكة غانة فى أعالى النيجر والسـنغال ، وشملت جـزءا كبيرا من حوض النيجر .

وقد كان للمبدأ الاسلامى الذى جاء فى الآية الكريمة « يا أيها النـاس انا خلقنـاكم من ذكر وانثى وجعلناكم شـعوبا وقبـائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم .... » كان لهذا المبدأ أثره الذى دفع أبناء القبائل الافريقية الىقبول الاسلام لما احتواه من امور طالما تطلع اليها الافريقيون لحل مشاكلهم الاجتماعية وتحقيق الاستقرار فى حياتهم السياسية وتتمثل فى عنصرين رئيسيين :

أولهما : المساواة بين الناس التى تزيل ما بالحياة من طبقيـة مبنية على أساس العشائر المسيطرة .

وثانيهما : التعارف وهو ينطوى على فكرة التعايش السـلمى الذى يزيل ما بين القبائل من تنافس يؤدى الى منازعات وحروب مستمرة .

وقد كان لتلك الظروف السياسية والاجتماعيـة أثرها على انتشار الاسلام فى أنحاء القارة الافريقية وقبول الشعوب له على النحو التالى :

١ ــ نفذ الاسلام على يد التجار العرب والطوارق والوافدين من الشمال الافريقى عبـر الصحراء الى امبراطورية غانة حيث قبله من تألفت قلوبهم حول هؤلاء الوافدين المسلمين .

٢ ــ وقف الاسلام جامدا أمام شعب الامهارا فى الحبشة الذين

كانت مملكتهم قد تكونت على أساس المسيحية وتركزت كقوة سياسية تواجه أى تغيير عقائدى .

٣ ــ قبلت الكثير من الشعوب الاسلام لعدم تعارضه مع مصالحهم الاقتصادية ونظمهم الاجتماعية ولحاجتهم الى وسيلة أو مبادىء أساسية لوقف الصراع الدائر بينهم .

٤ ــ قبلت الشعوب الاسلام لاحتوائه على مبدأ تعدد الزوجات الذى كان سائدا فى مجتمعات القبائل .

٥ ــ قبلت الشعوب الاسلام كنظام للحياة والمعاملات والعلاقات لانه يساعد على استتباب الامن والسلام بين افراد القبيلة الواحدة ويخفف بينهم الطبقية الصارخة ، ويضع حدا لما بينهم وبين القبائل الاخرى من صراع دائم على الارض .

ولئن كان الاسلام قد لاقى من الطبقات الحاكمة فى أول الأمر بعض المقاومة الا أن هذه المقاومة سرعان ماذابت عند اقتناع هذه الطبقات بفائدة الاسلام للجماعة ، ويرجع هذا الاقتناع الى الطبيعة الجماعية لدى الشعوب الافريقية والشعور بالمسئولية الجماعية وتغليب المصالح المرسلة على المصالح الشخصية او الطبقية ــ تلك المبادىء التى كانت تحكم العلاقات فى داخل القبائل والعشائر .

وكان للغة العربية التى ارتبطت بالاسلام أثرها الاجتماعى الكبير وقت دخول الاسلام ، فقد كان سكان القارة عبارة عن شعوب متعددة ومختلفة اللسان مما جعل التفاهم بينهما على المصالح المشتركة صعبا ، بل ادى فى معظم الاحيان الى تباعد كبير بينها ، فقد كان كل فرد وكل شعب يشعر بالحاجة الى لغة تفاهم عامة تمكنه من التعامل مع الجيران ــ ذلك الشعور الذى ولد الرغبة

الملحة فى تقبل الاسلام ذلك النظام أو الدين الذى أتى بلغة جديدة تساعد على سد هذه الحاجة الاجتماعية الهامة .

وترتب على قبول الاسلام استخدام اللغة العربية فى أول الأمر كلغة دين ثم تبعت ذلك مرحلة اخذت الفاظ اللغة العربية فيهـا تنتشر تدريجيا بين الشعوب المختلفة اللغات واقتبست منها كل لغة ما يصلح منها للتعامل مع أهل اللغات الأخرى من الالفاظ المتعلقة بالدين والتحية والتعامل التجارى كالارقام وأسماء الشهور والايام والالفاظ الضرورية فى البيع والشراء وغيرها .

وقد بلغت درجة تأثر بعض اللغات باللغة العربية درجة كبيرة حتى أن لغات مثل الفولانى والهاوسا دخلت على كل منها نحو ٤٠٪ من مجموع الفاظهما من اللغة العربية . كما أن لغات أخرى فى غرب أفريقية كلغة البامبارا أو لغة الوولوف قد أصبحت تضم ٢٥ ٪ من مجموع ألفاظها من العربية وفى شرق أفريقيـة حـدث نفس الوضـع فتكونت لغة جديدة هى اللغة السواحيلية التى تتـكون الفاظها من ٦٠٪ عربية و٣٠٪ أفريقية و ١٠٪ دخلت عليها فيما بعد من البرتغالية والانجليزية (١) .

ولو ترك الأمر كذلك دون تدخل المستعمر فى القرنين الاخيرين لتحولت بعض من تلك اللغات المطعمة بالعربية الى لهجات عربيـة كلهجة موريتانيا الحسانية وكلهجات غرب السودان والمغرب الاقصى

• البيئة الروحية والفكرية

دخل الاسلام الى القارة الافريقية فى وقت كانت فيه الأفكار الاسطورية والدينية والفلسفية قد بلغت مدى كبيرا من التعـدد

---

(١) هذه النسب تقريبية حسبت على اساس عينات عشوائية تتكون مـن ٥٠٠٠ كلمة متنوعة من كل لغة .

والتنوع وذهبت الى آفاق بعيدة من التخيلات والتصورات التى تاه فيها العقل الانسانى .

ولقد اختلفت العقائد الدينية فى افريقية عنها فى سائر جهات العالم سواء فى الماضى أو الحاضر .

فالاديان غير السماوية التى عرفت لنا حتى اليـوم بمكن أن نقسمها على أساس المعتقدات التى تدور حولها الى ثلاثة انواع :

١ ـ اديان طبيعية تدور المعتقدات فيهـا حول ظاهرة أو ظواهر طبيعية وتجسد هذه الظواهر فى تماثيل تحاط باساطير كما كان الحـال عنـد الاغـريق والرومان والى حـد ما عند الاشوريين والبابليين .

٢ ـ اديان انسانية تؤله بعض الاشخاص الذين لهم دورهم فى حياة الشعوب لما تركوه من مبادىء وتعاليم اخلاقية ، وفلسفات اجتماعية خاصة تعتز بهـا هـذه الشـعوب لدرجة تألية أصحابها ، وتوجد مثل هذه الاديان فى قارة آسيا وأهمها النفوشية والبوذية والزرادشتية .

٣ ـ اديان طبيعية انسانية تتميز بتقديس ظاهرة لها فعاليتها فى حياة الناس وتستمد منها الاسرة الملكية المقدسـة قوتهـا التى تحكم بها ، كالديانة المصرية القديمة التى تؤمن باله واحد « الشـمس » وتحيطه باسـطورة تنتهى الى الحـق المقدس للملك أو للاسرة المالكة أسرة فرعون .

اما العقائد الدينية عند الافريقيين فانها اختلفت اختلافا واضحا عن هذه الاديان الموروثة أو التى مر الانسان بها فى حياته فى جهات مختلفة من العالم ، فهى لا تعتمـد على عنصر واحد تدور حوله المعتقدات والأساطير ، كما لا تربط عنصرا بعنصر اخر ينتهى الى

التقديس ، ولكنها تدور حول مبادىء اعتقادية متعـددة تتلخص فيما يلى (١) :

(أ) الاعتقاد فى اله علوى أو كائن علوى . Supreme God

(ب) تقـديس أرواح بعض الشخصيات ألتى لها تاريخهـــا واهميتها فى حياة الشعب وتتمثل فى روح القـائد الأول أو الملك الأول الذى قاد الجماعة الى وطنها الحالى .

(جـ) تقديس ارواح السلف والاعتقاد فىبقاء تأثيرها على حياة الافراد والأسرة بعد الوفاة .

(د) الاعتقاد فى خلود الروح بصور شتى ترتبط بهـا فكرة عن عالم الموتى وفكرة الحلول .

(هـ) خلع صفات روحية على ظواهر الطبيعة . Animisim

(و) الاعتقاد فى وجود كائنات غير انسانية وغير مرئية او ارواح يتصف بعضها بالخير وبعضها بالشر وترتبط بها أعمـال السحر الأبيض والطب وكذلك السحر الأسود والشعوذة .

هذه الزحمة من المعتقدات جعلت الافريقى فى شغل شـاغل بممارسة العقيدة والمراسيم المرتبطة بها ، وشملت هذه المراسيم جميع نواحي الحيـاة ويمكن تصنيف هـذه المراسـيم فى أربعة مجموعات رئيسية هى :

١ ـ المراسيم التى تتعلق بظواهر الطبيعة ، كالمطر ، والفيضانات والخسوف والكسوف وغير ذلك مما يشعر الانسان بخطره او فائدته وهذه توجه كلها الى الكائن العلوى .

---

(١) Parrender, E.G., African Traditional Religions, London 1968, p. 36., and John S. Mbiti, African Religions and Philosophy, London 1969, p. 71.

٢ — المراسيم التى تتعلق بالشئون الاقتصادية كمراسيم الخروج الى الصيد أو الى المرعى وأعياد البذر والحصاد وصلاة الاستسقاء وهذه اما أن توجه الى الاله العلوى أو الى روح الملك الأول .

٣ — المراسيم التى تتعلق بالحياة الاجتماعية والفردية ، كمراسيم الزواج والبلوغ والختان والمرض والموت وغيرها ، وهذه غالبا ما توجه الى أرواح السلف أو أرواح الموتى .

٤ — السحر والشعوذة وهى ترتبط بالكائنات غير الانسانية الخفية .

ونتيجة لهذا التعدد الذى يربك الفكر ، وتلك الزحمة من المراسيم التى تشغل الحياة ، عاش الافريقيون فى اضطراب فكرى وروحى فبينما تربط الجماعة كل جوانب حياتها بالمعتقدات والمراسيم كان كل فرد يعيش فى حالة من التنازع الفكرى والنفسى بين تلك العناصر المتعددة التى يلزم أن يعتقد فيها جميعا ويوجه اليها كلها ولاءه وعباداته فأصبح من الصعب عليه أن يركز ولاءه الذهنى لأى من هذه المعتقدات ، وكان يعيش بذلك فى تيه من المقدسات ضالا لا يجد لروحه ملجأ اذا خلا لنفسه ، ثم اذا ما أعمل الفكر والنظر الى ما حوله من معتقدات ومراسيم انتهى به الأمر الى قبولها دون اقتناع واضطر فى حياته الى مجاراة مجتمعه فيما تفرضه عليه من تقاليد ومراسيم فيغرق فيها دون وعى أو ادراك .

ولقد كان من بين المعتقدات الافريقية عناصر تهدى الانسان الى الواقع وتنير له السبيل لادراك حقيقة الكون والانسان وكان الاعتقاد فى كائن علوى هو أهم هذه العناصر ، فهو اعتقاد لا تخلو منه أية ديانة من ديانات الشعوب الافريقية وفضلا عن ذلك فان الايمان بانتقال الروح الى عالم آخر ، والاعتقاد فى مخلوقات غير انسانية

بعضها خير وبعضها شرير ، فضلا عن الاعتقاد فى الوسطاء المكلفين من الاله بهداية الناس وغيرها ـ كانت هذه العناصر جميعا من العوامل التى ساعدت على قبول الافريقيين للاسلام ، ليس على انه نظام للحياة فحسب ولكن عن ايمان بفلسفته الأساسية التى تتمثل فى الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين مما وجد فى العقائد الفطرية الاساسية لهم وهو ما سنتبينه من الدراسة التفصيلية التالية للعقائد الافريقية .

١ ـ الوحدانية فى المعتقدات التقليدية :

تعتقد جميع الشعوب الافريقية فى كائن علوى يتخذ عند الشعوب أسماء عديدة وله صفات كثيرة ـ ولكن هذه الصفات لا تخرج عن صفات الله وأسمائه التى وردت فى كتابه العزيز .

ومثال ذلك (أنجوى) اله الماندى فى مالى وغينيا الذين تحول غالبيتهم الى الاسلام ، فقد كانوا يعتقدون انه وجد بذاته قبل الخلق ثم بث الحياة فى البشر وملأ العالم بقوى من عنده تسير الرياح وتحدث البرق وتجرى الأنهار ، وفى غرب افريقية كذلك قبائل الكونو التى تعيش فى سيراليون وتؤمن بالاله « أنجوى » أيضا ويصفونه بأنه الأول والآخر وانه موجود فى كل الوجود ماضيه وحاضره ومستقبله ويعتقدون أنه هو الذى يثيب البشر ويعاقبهم بالرعد والبرق . أما قبائل اليوروبا فى جنوب نيجيريا والتى يدين أغلبها الآن بالاسلام فقد كانوا يعتقدون فى اله يسمى « أولورون » ومعناها بلغتهم صاحب السموات ويعتقدون أنه خلق كل شىء ويصفونه بأنه عالم عليم بكل شىء قوى قدير على كل شىء .

واذا انتقلنا الى وسط جنوب افريقية نجد عند قبائل الكنغو الاله « اكونجو » وهو عندهم خالق الكون ، سوى الانسان مثلما تسوى الآنية الفخارية من الطين ، ويقولون انه يجل عن الوصف

وانه موجود فى كل الوجود وانه قريب يجيب دعـوة الداعى اذا دعاه .

وعند قبائل الباسوتو فى جنوب افريقية اله يسمى « موليمو » وهى لفظ معناه اللغوى عندهم النور أو المظهر أو الكاشف ، وعند قبائل الزولو يسمى الاله العلوى باسم « أونكو لونكولو » ومعنى الكلمة فى لغتهم الاعظم أو الاقدر وعند الباروتيسى يسمى نامبى ومعناها اللغوى المسبب والسبب .

وفى جنوب السودان وشمالى أوغنده يسود الاعتقاد فى الاله جوك عند الشلموك والاتشولى واللانجو ويمكن أن نتبين اعتقادهم فى الاله جوك من بعض الاغانى الشائعة فى حياتهم ، فتقول أغنية عند الشلوك (١) :

أنا أصلى لجوك
الجوك هو المعطى وهو الحافظ
امنت بالجوك واستعنت به
فاصبحت مخيفا لاعدائى
وأصبح أعدائى يخشون الاعتداء على
وتقول اغنية أخرى عند الشلوك يرددونها عند الخروج للصيد
أنا أصلى لجوك
أصلى له ليسدد سهامى
فانا أرمى السهم
ولكن الجوك يوجهه الى الهدف المصيب

ويضيق المقام عن سرد أمثلة اكثر من صور اعتقادات الافريقيين فى الاله العلوى ولكن الذى نستطيع استنتاجه هو أن فى فكرة الاله

Seligmann, Pagan Tribes of Anglo Egyptian Sudan and Uganda, London, OUD. 1934 p. 178.

العلوى فكرة الوحدانية ، وفى ادراكات الافريقيين للاله العلوى ما جعلهم يؤمنون بما جاء به القرآن الكريم من أمثال الآيات التالية :

« أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير ،

قل سـيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، ان الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون » (١) .

« ان فى خلق السموات والارض ، واختلاف الليل والنهـار والفلك التى تجرى فى البحر ـ بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (٢) .

« ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (٣) .

« ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل ، لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهـو اللطيف الخبير » (٤) .

هذه الايات وغيرها مما تثبت قدرة الله ووحدانيته وتدعو الله بصفاته واسمائه وجدت فى نفوس الافريقيين وقلوبهم ما جذبهم اليها مدفوعين بما تأصل فى عقائدهم منذ عصر الجاهلية من اعتقادات

---

(١) الآيات ١٩ ـ ٢١ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ١٦٤ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٢٤ من سورة الروم .

(٤) الآيات ١٠٢ ـ ١٠٣ من سورة الانعام .

فى الاله العلوى أو الكائن العلوى كما سبق أن رأينا ، فوجدوا فى الاســلام ضــالتهم التى يبحثون عنها وأدرك الافريقى بوجــدانه الفطرى الاجابة عما كان يحسه فى نفسه ويدركه بعقله عندما يتحرر من سلطان الاســطورة والخرافة ويسأل نفسه فيجــد فى الاصل الاول للعقيدة الاسلامية ضالته وفى ذلك قوله تعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم » (١) .

٢ ـ الخلق واليوم الآخر والملائكة وما يقابلها عند الافريقيين :

وبالاضــافة الى فطرة الوحدانية والايمان بالوهيــة الخالق الاعظم وصفاته واسمائه التى تتفق وعظمته وجبروته ، وتتمثل فى المعتقدات الافريقية نجد عنصرين من عناصر الايمان الاخــرى هما الايمان باليوم الآخر والملائكة ونسوق على ذلك بعض الامثلة :

فعند قبائل الدوجون (٢) التى تسكن فى مالى وفولتا العليا والتى دخل الكثير منها الاسلام خلال القرنين الاخيرين كان يسود اعتقاد بان الاله العلوى « آما » خلق النجوم .

ومنها الشمس والقمر وقذف بكرة أخرى كانت الارض وانجبت الارض ابن آوى (الذى يرمزون به لعالم الحيوان) وعــددا من الكائنات الشريرة دنست الارض وعاد « آما » فخلق الانسان من الطين ثم تميزت منه الانثى واسكن الله الانسان والانثى فى النجوم .. .. .. ولكنهما اكلا من الحبوب المحرمة فخجلا من « آما » على عصيانهما وهربا من السماء الى الارض .

مثل هذه القصة موجودة عند معظم القبائل الافريقيـة بصور شتى ولكنها جميعا تنم عن وجود فكرة هبوط آدم الى الارض

---

(١) الآية ٩ من سورة الزخرف .

(٢) Marcel Griaule and Germaine Dieterlen in African Worlds London, 1968 p. 91.

بسبب المحرمات وفيها أيضا فكرة خلق الانسان من الطين تلك الفكرة التى نلمسها بصورة أوضح عند الاشانتى فى وسط غانا حيث تقول أغنية عندهم (١) :

أيتها الارض التى منحتنى الحياة

أيتها الارض التى اليك يعود جسدى

انا اغنى لك واخاطبك

وانت تفهمين غنائى ونشيدى

ويتضح من هذه الاغنية اعتقاد يتفق مع الآية الكريمة « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » (٢) .

وأما الروح فان الايمان بها سائد عند الشعوب الافريقية فى أصل عقائدهم فهم يعتقدون أن الروح لا تفنى ولكن الجسد يفنى وان الروح هى الاطار الذى يمنح الانسان وجوده الانسانى ، وبخروجها يصبح الجسد عدما فقارن هذا بالآية « فلولا اذا بلغت الحلقوم ، وانتم حينئذ تنظرون » (٣) .

وتخرج الروح وتنتقل ــ حسب اعتقاد الافريقيين ــ الى أماكن أخرى كالانهار والاشجار والجبال والبراكين والبحار او تحل فى حيوان أو طير أو نبات اختلفوا فيه جميعا وحار فيها كل فرد حتى اذا جاءهم الاسلام ازال حيرتهم وأرواحهم من التفكير فيها ــ كما يفهم من قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

(١) E.G. Parrender, op. cit., P. 48.

(٢) الآية ٥٥ من سورة طه .

(٣) الآيتان ٨٣ ، ٨٤ من سورة الواقعة .

وفى اعتقاد الافريقيين بكائنات غيبية خيرة وشريرة لها دورها فى حياة الانسان وما يحيط به ما يسر عليهم الايمان بالاصل الثالث وهو الملائكة .

٣ ــ الايمان الضمنى بالكتاب والنبيين :

اذا كانت تلك الاصول التى ذكرناها قد وجدت فى فكر الافريقيين وقلوبهم هوى ، ولئن كانوا قد وجدوا فيهـا ما يتفق مع تفكيرهم الفطرى الذى توصلوا اليه قبل أن تحيط به الاوهام ويضـيع فى زحمة الاسـاطير فان الايمان بالنبيين والكتب قد جاء ضـمنا مع الايمان بالله وملائكته واليوم الآخر ، غير أن هذا القبول الضمنى للايمان بالكتاب والنبيين قد دعمته أفكار روحية مشوهة وجدت آثارها فى كثير من المعتقدات الافريقية الاصلية حيث نجـد عنـد قبائل مثل اللوجبارا فى أوغندة والكتغو وقبائل الجاى فى أوغندة والتركانا واللو فى كينيا اعتقادا راسخا فى وجود انبياء ووسطاء بين الاله والناس يتلقون التعليمات منـه وينقلونهـا للبشر والبعض يعتقدون فى أن ملكهم الأول أو مؤسـس شـعبهم كان على صـلة روحية مباشرة بالاله الخالق ويسوق جون أمبيتى (١) فى كتـابه الديانات والفلسفة الافريقية أمثلة كثيرة على ذلك منها اعتقاد أن اللوجبارا خالقهم قد دعا احدى بنات القبيلة فى بداية شبابها لتكون رسوله الى الناس ، حيث خرجت الى الغـابات الـكثيفة الوعرة المسالك فقابلها الاله وحملها رسالته المقدسـة الى النـاس وكانت تخرج اليه من وقت لآخر لتلقاه فى الكوخ الالهى تسأله حل مشاكل أهلها وتتلقى منه التعليمات الجديدة ، ومن الأمثلة الأخرى التى ساقها جون أمبيتى مثال النياتكانج أو الملك الاول عند الشلوك فى جنوب السودان فقد كان مقربا من الاله وتلقى منه وحيابالتعليمات الأولى التى سار عليها شعب الشلوك بعد ان قاده النياتكانج الى موطنه الحالى فى جنوب السودان .

---

(١) Mbiti, John, Op. cit., p. 47.

وهكذا كان الايمان الضمنى بالنبيين والكتاب الموحى به مدعما ببعض الأفكار السابقة على الاسلام مما كان اساسا لاكتمال ايمان الافريقيين بالعناصر الايمانية الخمسة فى الاسلام .

* * *

ولئن كان المبشرون والمستشرقون والكتاب الغربيون الذين تناولوا الاسلام فى القارة الافريقية قد حاولوا تشويه صورة الاسلام بدعوى أنه انتشر بين الشعوب الافريقيــة لما تضمنه من دعوة الى الدنيا وملذاتها أو أنه قد انتشر انتشارا واسعا لتجمع الافريقيين حول حلقات الذكر التى تشبه الرقص عندهم فان تلك الأدلة التى سقناها من عوامل روحية وفكرية لتعتبر دليــلا واضحا على ان الاسلام وانتشاره قد انبنى على أسس عقلية ووجدانية نبعت من صميم المعتقدات الأفريقيــة الفطرية « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبــديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وهكذا نجد أن هذه العوامل مجتمعة قد ســاعدت على دخول الاسلام فى مراحله المبكرة كما ساعدت على انتشاره فى مراحله التالية حيث تقبلته الشعوب كوسيلة لحل مشاكلهم الاجتماعية والسياسية والفكرية والروحية ، فعملوا به كدين وكطريق للحياة ، وقانون دنيوى ازدهرت به حياتهم وتفتحت به مراكز الثقافة الاســلامية ونشأت فى غرب القارة وشرقها ممــالك وامارات وامبراطوريات سنتناولها بالدراسة فى الفصلين التاليين .

الفصل الثانى

الحضارات الاســلامية فى غرب افريقية

كان لدخول الاسلام فى القارة الافريقية أثره الحضارى الواضح عليها ، فقد ساعد على تحول الحياة من القبائلية الصرفة الى نظام الدولة بمفهومه الحديث كأرض وشعب وحكومة ، وعملت الدول الاسلامية التى نشأت فى انحاء القارة على توحيد أجزاء شاسـعة وتجميع مجموعات بشرية عديدة فى ظل النظم الاسلامية التى اخذت بها وطورت الحياة فيها الى مستويات حضارية عالية اذا قيست بمقياس عصرها وظروفها الجغرافية ونتناول فى هذا الفصل عرضا للممالك الاسلامية التى قامت فى غرب افريقية وازدهرت بالاسلام ثم نستعرض قيام الحـكم الاســلامى فى شرق افريقية وتطوره فى الفصل التالى .

ولقد كانت الاتصالات بين بلاد السودان والشـمال الافريقى قائمة على طوال محاور الصحراء الممتدة عليها طرق القوافل من المغرب وليبيا ومصر الى أطراف الصحراء الجنوبيـة التى عرفت باسم الساحل (ساحل الصحراء) وعلى طول الطرق الصحراوية التى سبق أن أشرنا الى انتهائها فى الجنوب عند ملتقى الماء بالرمال ، واول ما يذكر من ممالك غرب افريقية هى مملكة غانا التى وأن لم تبدأ بالاسلام الا أنها تأثرت بالاسلام تأثرا كبيرا ، وقد أعقبتهـا امبراطورية مالى فى بلاد النيجر الاعلى ومملكة برنووكانم فى منطقة تشاد ثم انتقلت السلطة فى بلاد النيجر الى ملوك الصنغاى كما نمت وازدهرت فى البقاع الواقعة بين بلاد النيجر العليا وتشاد ممالك الهاوسا فى شمال نيجيريا ، وبعد ذلك مرت على البلاد فترة من

الاضمحلال أعقبت القرن الخامس عشر تقسمت فيها البلاد الى ممالك صغيرة بعضها حافظت على الاسلام وبعضها شابتها وثنية الجاهلية .

ولدراسة هذه الامبراطوريات والممالك المتتابعة أهميـة كبيرة لسببين رئيسيين هما :

١ ـ انها تؤكد الأثر الحضارى للاسلام على القارة الافريقية .

٢ ـ انها تثبت فساد ادعاءات المستشرقين والكتاب الغربيين من ان الاسلام دين عربى لا يصلح لكل الشعوب ولا لمختلف البيئات وانه يقف بالمستوى الحضارى عند حد لا يتعداه .

ومما يستحق الذكر هنا ان أول سجل تاريخى لبـلاد غرب افريقية جاء مع نشأة هـذه الممالك وازدهارها ، وان السجلات الأولى عن تاريخ أفريقية وجغرافيتها كانت على يد كل من أبى عبيد الله العمرى صاحب مسالك الأبصار وابن خلدون صاحب التاريخ المشهورمن أوائل وأهم الكتابالعرب الذين فصلوا الكتابة عن غرب افريقية وشرقها ، كما تعتبر رحـلات ابن بطوطة ووصفه لهـذه الاقاليم من أهم مصادر التاريخ والجغرافية الوصفية فى عصره ، ويعتبر القلقشندى من أهم الكتاب العرب الذين جمعوا ما ذكره سابقهم عن هذه البلاد .

وقد أعقب هؤلاء الكتاب العرب جيل من الكتاب الوطنيين ابناء البلاد سجلوا تاريخ بلادهم بقلم عربى ، فجاءت كتاباتهم سجلات دقيقة ان جاز لنا مقارنتها بما سجله العرب لامتازت عن الأخيرة بما امتاز به الكتاب الوطنيون عن الكتاب العرب من فهمهم الدقيق لخصائص بلادهم وطبائع شعوبهم وادراكهم لمصطلحات لغاتهم ومن أهم هؤلاء الكتاب الذين سجلوا عن تاريخ غرب افريقية محمود كعت التمبكتى صاحب كتاب الفتاش فى تاريخ الملوك وأكابر النـاس ،

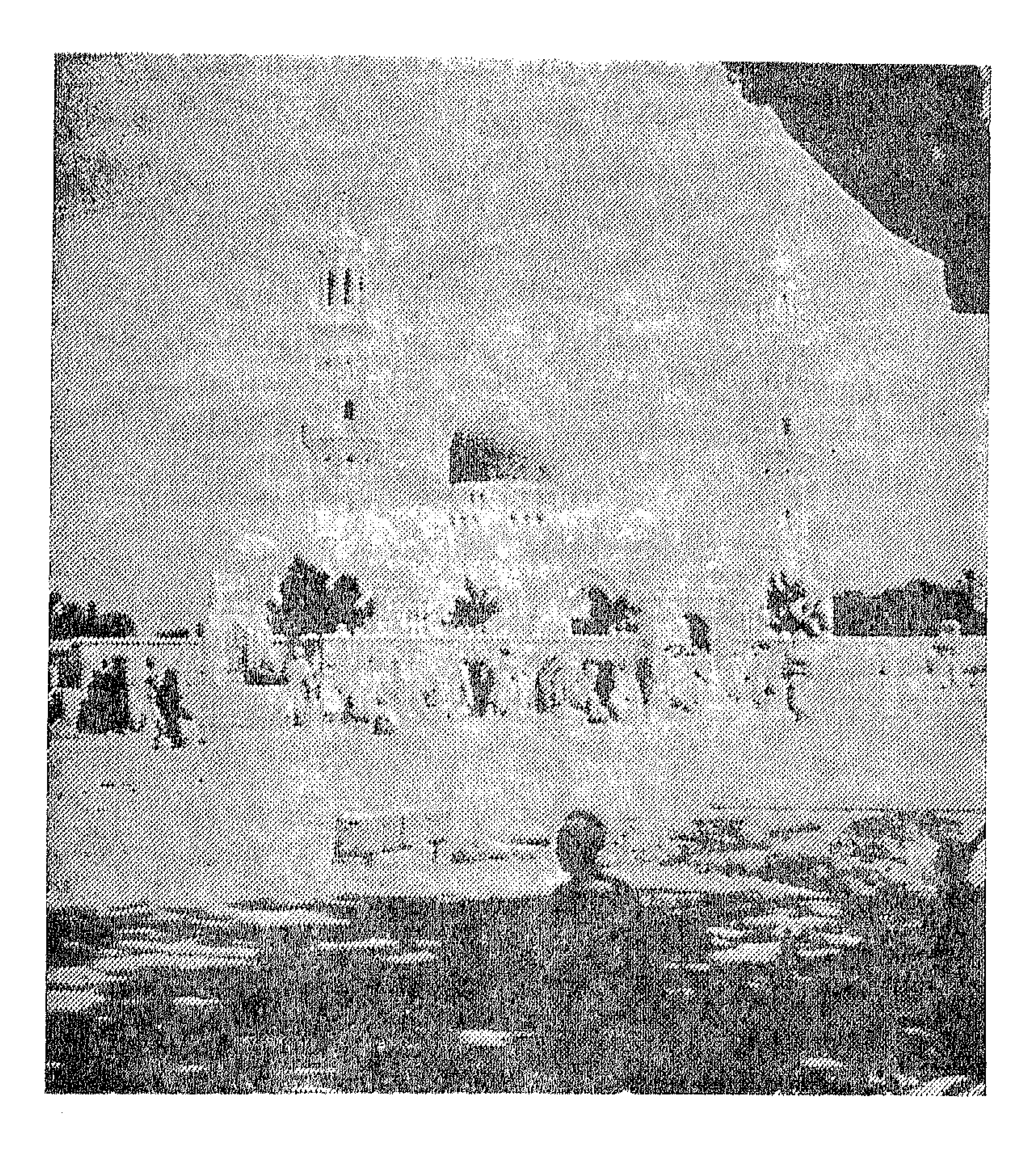
وعبد الرحمن السعدى الذى سطر كتاب تاريخ السودان ، وكلاهما مكمل الأخر اذ جاء فيهما ذكر اخبار أباطرة مالى وملوك الصنغاى بكثير من التفصيل .

ويرجع اول ذكر للصلات التى قامت بين الشمال الافريقى وبلاده السودان الى كتابات ابن عبد الحكم (المتوفى سنة ٢٥٧هـ - ٨٧٠ م) حيث تحدث عن بعثة أرسلها عبيد الله الذى أمر تابعه حبيب بن عبيدة بالذهاب الى سوس وبلاد السودان ، وقد أحرز حبيب نجاحا كبيرا فى رحلته حيث جلب معه كميات كبيرة من الذهب ، ويذكر أن ابنه عبد الرحمن بن حبيب قد قام بعد ذلك بعشرين عاما بحفر آبار على طول الطريق من جنوب مراكش ، أودغشت لفتحه للقوافل ويعتبر هذا الطريق الغربى من أهم الطرق التى عبر عليها الاسلام الصحراء الى ساحلها فى الجنوب عند أطراف السودان .

غانة واودغشت

جاء ذكر غانا كثيرا فى كتب العرب المبكرين ، اذ ان الفلكى الجغرافى المشهور الفزارى قد أشار الى بلاد غانه على أنها ارض الذهب وحدد الخوارزمى (المتوفى ٢١٧هـ - ٨٣٣م) موقعها فى أطراف القليم الاول ، أما اليعقوبى (المتوفى ٢٥٩ هـ - ٩٧٧ م) فذكر أن ملوك أودغشت كانت لهم صلة بملوك غانة التى كانت اغنى بلاد الارض فى زمانه (حينما زارها فى حياته) لما فيها من ذهب .

ويرجح أن هذه المملكة قد بدأت تتكون فى خلال القرن الرابع الميلادى على يد جماعات مبكرة من « السوننكة » وهم أحد فروع المجموعة الكبيرة التى تتكلم لغة الماندى ، ونظرا لما اشتهرت به غانا من غنى كبير فى الذهب فقد شجع ذلك كثيرا من التجار البربر والعرب على الاتجاه الى تلك البلاد عبر الصحراء للاتجار فى الملح والملابس والخرز وسروج الخيل التى كانت من لوازم تلك المملكة نظير الذهب التى كانت تغنى به بلاد غانة .



مسجد كانوا القديم
بنى فى القرن الرابع عشر

وكانت الصلة قائمـة بين أودغشت وغانا حيث كان الطريق بينهما مسكونا معمورا حول الآبار التى حفرت على طول الطريق ، ونتيجة لهذهالصلة فان الكثير منالمسلمين البربروالعرب استوطنوا غانه ، ونسـتدل مما ذكر عن أودغشت فى كتب العرب انه كان هناك نوع من تبادل النفوذ بين ملوك غانا وملوك أودغشت ، ومما يؤكد ذلك ماذكره البكرى من انه قبل عام ٣١٠هـ (٩٢٢ م) كان يحكم فى أودغشت ملكصنهاجى (من البربر) يسمى « تينباروتان ابن وينونو بن نزار » وكان يخضع له أكثر من عشرين ملكا منملوك السودان يدينون له بالولاء ويدفعون له الجزية وأن امتـداد ملك أودغشت فى عهده كان طوله وعرضه مسيرة شهرين وكان له جيش من مائة ألف عسكر يركبون النوق والجمال ، ويذكر صاحب روض القرطاس (١) أن ملك صنهاجة استمر مائة وعشرين عاما ، ولئن كان ابن خلدون يخالف ما ذكره البكرى فى بعض أسماء الملوك الا ان المتفق عليه بينهما هو ان ملك أودغشت كان يمتد الى الجنوب حتى يشمل الارض الواقعة الى الغرب من بلاد غانه التى كان يحكمها السوننكة وهذا يعنى انه حتى أواخر القرن العاشر كانت أعـالى النيجر والسنغال مقسمة بين مملكتين مملكة صـنهاجة فى الغرب حاضرتها أودغشت ومملكة زنجية يحكمها ملوك السوننكة تقع الى شرق المملكة الصنهاجية وحاضرتها غانة .

ومما يستحق الذكر هنـا أن مملكة أودغشت رغم أن ذكرها جاء كثيرا فيما سطره الكتاب العرب المسلمين الجغرافيين والمؤرخين الا أن كتاب التاريخ المحدثين لغرب افريقية لم يتحدثوا عنها الا لماما ، وكانت كل كتابتهم تركز على مملكة غانة باعتبارها مملكة ذات طابع زنجى وثنى لكى يصلوا من وراء ذلك الى أن سقوط هذه المملكة جاء على يد المرابطين ومن ثم يرجعونه الى الاسلام كما فى

---

(١) ابن أبى زرع أبو الحسن ابن عبد الله المتوفى سنة ٧٢٧ هـ ـ (١٣٢٦م) : كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس ـ نشرت ترجمته فى اوبستباله سنة ١٨٦٦ م .

دراسات جون فيج أحد مشاهير كتاب تاريخ غرب أفريقية (٢) .

وبهذه الحقيقة التى أوردناها هنـــا وهى تعاصر مملكتى غانا وأودغشت ووجود سلام قائم بينهما ، وازدهار التجارة على الطريق المنشأ بين غانا واودغشت ، يتأكد لنا بالدليل التاريخى الواضح ان الاسلام قد اخذ طريقه الى تلك البلاد مع التجارة وأن كثيرا من التجار الذين استوطنوا حاضرة غانا قد جمعوا حولهم أبناء البلاد من السوننكة وعلموهم الاسلام فقبلوه وتزاوجوا معهم وتوارثوا ، وانشئت مدينة تجارية كان كل سكانها من المسلمين من عـــرب وبربر وسوننكه وسوسو وساراكولا جميعا يجيبون نداء المؤذن للصلاة فيجتمعون فى المسجد الذى أقيم فى جانب مـــن ســـاحة المدينة يسجدون لله جميعا وكلهم أمام الله سواء وينصرفون الى تجارتهم وصنائعهم على أخوة الله وفى الاسلام ويبيتون فى بيوت متجاورة متحابين فى طمأنينة وأمان .

غانة والمرابطون

هاجر عبد الله بن ياسين مع جمع من تلاميذه من أبناء قبائل لمتونه وجداله البربريتين الى جزيرة فى السنغال حيث رابطوا فيها يعمقون علمهم بالدين ليخرجوا من هذا الرباط للدعوة الى اصلاح أمور الدين القائمة والتى كانت فى ذلك الوقت من مطلع القرن الحادى عشر الميلادى وأواخر القرن الرابع الهجرى قد شابتها الوثنية ولكى يقوموا بدعوة من لم تبلغهم الدعوة الى الدخول فى الاسلام ، ودخل الكثير من أبناء بلاد السودان فى دين الله أفواجا ، وصلح على أيدى الدعاة من المرابطين دين هؤلاء الذين ســـبق لهم دخول الاســـلام وتطهرت حياتهم وعقائدهم من آثار الجاهلية القبائلية الأولى ، على أن بعض الملوك قاوموا الدعوة وحاربوا من أسلم وتعرضوا لهم فى

---

(1) Fage; John D., Ghana, A Historical Background, Wisconsin, 1959 p. 37 and An Introduction to the History of West Africa, OUP., London, 1955, pp. 22 — 23.

حياتهم وحريتهم ، فما كان من رجال عبد الله بن ياسين المرابطين الا أن أعلنوا الجهاد فى سبيل الله دفاعا عن الدين أول الأمر ثم اتجهوا بعد أن استتب لها الامر الى توحيد ديار الاسلام فى دولة قوية تجمع بين شمال الصحراء وجنوبهــا وكان لهم ذلك على مدى سنوات عديدة بقيادة أبى بكر ثم خليفته يوسف بن تاشــفين اللذين تم فى عهدهما اسلام عدد من ملوك وأمراء الاقاليم الذين أخذوا يخرجون على طاعة غانا وينفضون عن انفسهم الولاء للملوك ليسوا بالمسلمين ولا بالوثنيين ، واستقل أيضــا الملوك الوثنيون الذين لم يدخلوا الاسلام وشعروا بضعف ملك غانا ، وتكونت بذلك على أنقاض غانا فى أواخر القرن الحادى عشر ممالك متعددة مثل ديارا ، وكنجابا ، وسوسو ، وساراكولا (١) وغانا نفسها وغيرها وظل الوضع كذلك حتى نمت امبراطورية مالى فى القرن الثالث عشر الميلادى أو الثامن الهجرى .

ويضيق المقام هنا عن ذكر اثر الاسلام فى غانه ولكن الزهيرى المتوفى سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠م) قد ذكر أن اسلام سكان غانه فى أوائل القرن كان قد صلح على يد اللمتونه وجداله وهم من اتباع عبد الله بن ياسين المرابطى ، ويدل ذلك على أن الاسلام قد دخل الى غانا سلميا على يد التجار والدعاة وان المرابطين لم يفرضــوا الاسلام على شعب السوننكه وغيره من شعوب تلك المنطقة بالقوة بل انهم اتبعوا طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحســنة وتأليف القلوب حولهم كما أن الاسلام ذاته قد لاقى قبولا عقليا واجتماعيا لدى تلك الشعوب كما سبق أن ذكرنا فى الفصل الأول ، وان الحروب لم تقع الا دفاعا عن اسلام المسلمين ضد عدوان غير المسلمين .

مالى من مملكة الى امبراطورية

وتعتبر سنة ١٠٧٦ م التى قدرت طبقا للآثار المروية ــ هى مرحلة انتقال ملك مالى من أيدى ملوك وثنيين الى يد ملوك مسلمين

(١) انظر الخريطة رقم ٢

وقد ظل وضع غانا الجديدة بعد أن انفصلت عنها الممالك الاخرى التى كانت خاضعة لها على هذا الحال حتى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى حينما أخذت الممالك تتنافس على توسيع رقعتها حتى ظهرت من بينها مملكة مالى لتكون الأمبراطورية التى وحدت غرب أفريقية لأول مرة فى ظل الاسلام .

بدأت مالى أو مللى تتكون كمملكة ينتظم تحت لوائها شعب مللى على ضفاف أعالى النيجر منذ زمن مبكر ، ثم خضعت لحكم ملوك السوننكى ضمن الممالك المتعددة التى ضمتها امبراطورية غانا وأهمها سوسو وديارا وجاجام وغيرها ، وقد اتخذ ملوك المملكة الأوائل مدينة كانجابا عند ملتقى النيجر الأعلى برافده سانكارانى عاصمة لهم .

وينتمى ملوك مالى الى أسرة كيتا التى تعتبر أكبر عشائر تلك الجماعة المعروفة باسم كانجابا والتى كانت العاصمة القديمة مسماة باسمهم ، وكانت جماعات سوسو تغزو بلاد مالى كثيرا وتسيطر عليها ثم يسترد ملوك مالى السلطة منهم ، وظل الحال كذلك حتى القرن الثالث عشر حيث كانت مالى فى معظم وقتها خاضعة أو تابعة لملك سوسو الذى انفصل عن غانا ، ثم بدأت مالى مجدها على يد ملكها المسمى سنجاتاكيتا أو « سندياتا » أو « مارى جاطه » حسب ما سماه الكتاب العرب وذلك فى عام ١٢٣٠ م (٦٢٨ هـ) طبقا للروايات المتواترة .

ولقد تعددت الروايات المحلية عن قيام ملك مالى بعد اسلام ملوكها منها ، ما نقله البكرى ومنهـا ما سجله دى لافوس الرحالة الفرنسى الذى جاب غرب أفريقية والصحراء فى القرن التاسع عشر وجمع المخطوطات العربية والروايات المحلية وسجل منها تاريخه المعروف فى كتابه « أعالى النيجر والسنغال » ومما روى عن البكرى وأيدته الروايات المحلية كذلك أن أحد ملوك مالى قد دخل الاسلام فى أواسط القرن الحادى عشر على يد أحد المرابطين وتحكى الرواية المحلية أن قحطا قد أصاب البلاد فى عهده نتيجة تأخر سقوط المطر

واخذ الناس يموتون جوعا والدواب تنفق بالمئات فأتى اليـه هذا الشيخ المرابطى ودعا لاقامة صلاة الاستسقاء فاستجاب الله لصلاته وسقط المطر فأسلم الملك واتباعه ، ويقال أن هذا كان أول دخول الاسلام الى هذه البلاد ولئن كانت الرواية تحمل فى مضمونها أن بعض المرابطين قد عاشـوا فى البلاد من قبـل فإن ذلك يثبت أن الاسلام دخل اليها فى وقت مبكر اى قبل ذلك بسنوات عديدة قد ترجع الى القرن العاشر أو أواخر القرن التاسع الميلادى .

أما عن الرواية المحليـة المتواترة عـن الملك سنجاتا منشىء الامبراطورية فانها تتلخص فى أن السوسو عادوا الى غزو مالى فى عهد ملكها سومنجورو ، وقد استطاع سومنجورو أن يضرب مالى ضربات متتالية ولكنها لم تسلم فحشد لذلك اكبر قوة من السوسو وهاجم كانجابا بجيش كبير فخربها وقتل معظم أهلها كما قتل جميع أفراد الأسرة المالكة ما عدا الطفل الرضيع سنجاتا ابن الملك مارى ماجان كيتا ، ولقد هرب هذا الطفل معلقا على ظهر امه التى تسمى سوجولون والتى كانت الزوجة الثالثـة لمارى ماجان كيتا ، كما كما هربت معها بنات مارى ماجان الاخريات ، ولجأت هذه البقية الباقية من الأسرة الحاكمة الى أحد ملوك غانا حيث تربى سنجاتا فى رعاية أمه واخواته .

وتحكى الاسطورة (١) التى يرويهـا الماندنج حتى يومنا هـذا ويتغنون بها فى سهراتهم وحفلاتهم أن سنجاتا كان كسيحا لايستطيع الوقوف على قدميه ولكن أمـه وأخواته ظللن من حوله تغنين له استحثاثا له ليقف على قدميـه طيلة الأيام ويصلين لله أن يمنحه القدرة طيلة الليالى حتى أثر غناؤهم فيه واستجاب الله لدعائهن فوقف على قدميه وهو فى العاشرة من عمره ، ومن هنا بدأت تربيته

---

(١) وردت تفاصيل الاسطورة والاغانى فى كتاب جبريل تمصـير نيلنى عـن سنجاتا الذى نشرته جمعية الثقافة الافريقية فى باريس عام ١٩٥٩ ضمن مجموعة منشورات الوجود الافريقى .

على الفروسية والرماية لينتقم لأهله ويستعيد ملك آبائه ويحرر شعبه من سيطرة ملوك سوسو الكفار وبرز فى الفروسية والرماية كما برز فى القيادة حيث جمع حوله عددا من الفرسان من أبناء كانجابا ومن الماندنج وكون بهم نواة جيش أخذ يتحرك بقيادته نحو كانجابا ونيانى وانضم اليه الآلاف من الماندى أثناء تحركه لتحرير أرضهم حتى بلغ حاضرة ملك آبائه فى عام ١٢٣٠م(٦٢٨ هـ) وطرد منها السوسو وأعاد بناء الملك فى نيانى التى اتخذها عاصمة له وأخذ يحرر الأرض من حولها تدريجيافاتجه بجيوشه الى الشمال حيث كانت الموقعة الفاصلة بعد استيلائه على نيونو وكانجابا بخمس سنوات وكانت هذه الموقعة فى كيرينا الى الشمال من كوليكورو (قرب باماكو عاصمة مالى الحالية) حيث هزم سنجاتا جيش سومنجورو هزيمة منكرة وأخذت جيوش مالى بعد ذلك تتجه شمالا حتى غانا ودخلتها منتصرة فى عام ١٢٤٠ م (٦٣٩ هـ) وبدأ سونجاتا ينظم ملكه على أساس اسلامى وحج عام ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) ثم مات بعد حجه بخمس سنوات تاركا مالى مملكة قوية تمتد فى أعالى النيجر وأعالى السنغال (١) وجيشها قوى ونظامها مستقر لتبدأ مرحلة تكوين الامبراطورية الاسلامية الكبرى .

وظل ملك مالى فى أبناء مارى جاطة حتى انتقل عام ١٢٨٥م (٦٨٤هـ) الى أحد أتباع الملك ويسمى ساكورو الذى بدأت فى عهده سياسة مالى التوسعية فقد استولى على جاو الى الشمال الشرقى حيث كان شعب الصنغاى ينمو فى مملكته الصغيرة وأخيرا بسط نفوذه الى الشرق حتى بلاد الهاوسا ، وبموت ساكورو عاد الملك الى أسرة كيتا الشرعية فى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى حيث بدأ توسع المملكة نحو الغرب فبلغت المحيط الاطلسى بعد ضم بلاد الوولوف فى السنغال وبلاد التكرور والديالو فى غينيا ، وفى عهد كانكان موسى الذى عرف باسم منسا موسى أصبحت مالى امبراطورية

---

(١) انظر الخرطة رقم ٤

تمتد من بلاد الهاوسا فى الشرق مشتملة على مملكة جاو ومملكة ماسينا شرق مالى ومملكة سوسو وغانا فى شمالها وبلاد التكرور والوولوف والديالو فى غربها ومملكة بورى فى جنوبها ، ولذا نقلت حاضرة الامبراطورية شمالا الى مكان متوسط يقال له « جنى أوينى » حسب رواية ابن فضل الله العمرى .

وتعتبر كتابات ابن فضل الله العمرى ادق مصدر عن مالى فى عهد منسا سليمان الذى خلف أباه منسا موسى ، ويأتى فى نص العمرى عن مملكة مالى وما معها (١) .

« أعلم أن هذه المملكة فى جنوب نهاية المغرب متصلة بالبحر المحيط ، قاعدة الملك بها يبنى وهذه المملكة شديدة الحر قشفة المعيشة قليلة انواع الأقوات وأهلها طوال فى غاية السواد وتفلفل الشعر ، وغالب طول أهلها من سوقهم لا من هياكل أبدانهم » .

« وملكها الآن (على زمن العمرى فى النصف الأول من القرن الرابع عشر) اسمه سليمان . أخذ السلطان موسى منسا بيده ما كان قد جمعه أخوه مما فتح من بلاد السودان وأضافه الى يد الاسلام وبنى المساجد والجوامع والمواذن ، وأقام بها الجمع والجامعات والآذان وجلب الى بلاده الفقهاء من مذهب الامام مالك رضى الله عنه ، وبقى بها سلطانا للمسلمين ، وتفقه فى الدين » .

« وصاحب هذه المملكة هو المعروف عند أهل مصر بملك التكرور ، ولو سمع هذا لأنف عنه لان التكرور انما هو أقليم من مملكته . والأحب اليه أن يقال صاحب مالى لأنه الأسم الأكبر وهو به أشهر » .

ونأتى بعد ذلك الى وصف امتداد ملك مالى الذى حددها بدقة

---

(١) ابن فضل الله العمرى المتوفى ٧٤٩ هـ ــ ١٣٤٩ م . مسالك الابصار ، مخطوطة فى دار الكتب المصرية ــ والنص نقلا عن الدكتور صلاح الدين المنجد فى كتاب مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين والمطبوعة فى بيروت عام ١٩٦٣ .

القلقشندى فى صبح الأعشى نقلا عن مصادر عديدة حيث قال :

« وحدها فى الغرب البحر المحيط وفى الشرق بلاد البرنو وفى الشمال جبال البربر وفى الجنوب الزنج ، وذكر عن الشيخ سعيد الدكالى (١) أن هـذه المملكة مربعة طولها اربعة اشـهر أو أزيد وعرضها مثل ذلك ، وجميعها مسكونة الا ما قل ، وهذه المملكةهى أعظم ممالك السودان المسلمين » .

وعن القلقشندى أيضا نقلا عن ابن خلدون (٢) .

« وقد ذكر صاحب العبر انها تشتمل على خمسة اقاليم كل اقليم منها مملكة بذاتها » وعدد هذه الاقاليم على النحو التالى :

مالى اقليم واسطة الأقاليم وحاضرتها ينى
صوصو واقع شرق مالى
كوكو واقع غرب مالى
غانه وهى غربى اقليم صوصو
بلاد تكرور وهى شرقى بلاد كوكو وتليه مملكة برنو

وقد أفاض القلشقندى أيضا فى ذكر حج منسا موسى ومروره بمصر وكان حج منسى موسا دليلا على قيام صلة وثيقة بين تلك البلاد ومصر ، وقد قيل بان منسى موسى فى رحلة عودته اصطحب معه بعض الفقهاء وعلماء الدين والكثير من الكتب .

أما ابن بطوطة (٣) فقد أفاض فى وصف عظمة ملك مالى وجلوس السلطان فى قبته وفى المشور وما يحيط بهذا الجلوس من مظاهر الأبهة والعظمة حيث يقول :

---

(١) هو الشيخ الثبت الفقيه أبو عثمان سعيد الدكالى وهو حسب ما ذكره ابن فضل الله العمرى ممن سكن مدينة ينى خمسة وثلاثين سـنة واصطحب فى هذه المملكة وهو مصرى الاصل .

(٢) القلشندى صبح الاعشى فى صناعة الانشا ـ طبعة دار الكتب المصرية الجزء الخامس ص ٢٨٢ الى ص ٣٠٤ .

(٣) رحلة ابن بطوطة طبعة صادرة ببيروت ص ٦٨٦ ـ ٦٨٧ .

« ويخرج السلطان من باب ركن القصر ، وقوسه بيده، وكنانته بين كتفيه وعلى رأسه شاشية من الذهب لها أطراف مثل السكاكين رقاق طولها أزيد من شبر ويمشي مشيا رويدا ومن حوله ثلاثمائة من أصحاب الصلاح ، ويكثر التأني حتى اذ وصل البنبى وقف ينظر فى الناس ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنقار » .

وجلوسه هذا كان لاستماع المظالم من الناس ، وقد روى ابن بطوطة ايضا كثيرا عن عدل هذا السلطان وتبرئه من الظلم كماتحدث عما استحسنه من أفعال أهل هذه البلاد فقال :

« هم أبعد الناس عن الظلم وسلطانهم لا يسامح أحدا فى شىء منه ومن أفعالهم الحسنة شمول الأمن فى بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها فى الجماعات وضرب أولادهم عليها . . ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لأولادهم القيود اذا ظهر فى حفظهم التقصير فى حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه » .

واهم ما يذكر عن مالى هو ذكر تمبكتو التى تقع قرب ثنية النيجر الشمالية ، وهى المدينة التى نشأت بالاسلام ، وازدهرت فى عهد ملوك مالى كمقر ومركز لعلوم الدين والدنيا ، وقد دعا منسا موسى أحد المهندسين العرب ويسمى السهيلى لبناء مسجد كبير بها يكون منارا للدين ومدرسة للعلوم وقدأقيم مسجد سنكورى تحيط بساحته الكبيرة حجرات الدراسة حيث خصص لكل معلم مع تلاميذه حجرة يجلسون فيها لها باب نحو ساحة المسجد ليتجهوا منها الى اقامة الصلاة ، وآخر نحو خارجه لينصرفوا منها بعد الدرس ، ولم تكن علوم الدين وحدها هى التى تدرس بل كانت تدرس أيضا علوم الفلك والنبات والطب فى الكتب التى استجلبها منسى موسى من مصر فى رحلة الحج المشهورة التى قام بها .

والى جانب ازدهار العلوم ازدهرت التجـارة مع بلاد المغرب والشمال الأفريقى ومع سائر بلاد الزنج جنوب مالى ، ولعل ذكر ابن بطوطه عن مقابلته لتاجر مغربى فى كوكو (كاوكاو) وهى التى تقع الى الجنوب الشرقى من مالى أى فى مكان قد يكون بلاد الداهومى أو بلاد اليوروبا فى جنوب نيجيريا لدليل على ان مالى كانت حلقه وصل بين شمال افريقية وتلك البلاد ، وكان ازدهار الملك واستقرار الأمن فيها عاملا مساعدا على نمو التجارة والتبادل التجارى .

ويعتبر التنظيم السياسى لمالى دليلا واضحا على أثر الاسلام فى ازدهار هذه البلاد ، فان نظام الحكم الفيدرالى قد ظهر لأول مرة فى تلك البلاد مبكرا وقبل أن تتعرف عليه أوروبا بقرون عديدة ــ ذلك أن الامبراطورية كانت تضم فى داخلها شعوبا عديدة كان لهـا ملوكها وسلاطينها الذين حفظ الامبراطور لهم وجودهم فى تبعية تظلها الوحدة الاسلامية .

ولقد تعاقب على مالى بعـد وفاة منسى موسى سنة ١٣٣٢ م (٧٣٣ هـ) عدد من الملوك حافظوا على الامبراطورية مثل منسا سليمان ، ثم بدأ الصراع على الملك بين الأخوة والأبناء حتى تولى ماجان الثالث وطال حكمه للبلاد خمسين عاما بدات أثناءها تضمحل وتضعف نتيجة لظهور ملوك أقوياء فى ماسينا وجاو فى الشـمال الشرقى ، واستمرت غزوات الموسى من الجنوب والبربر من الشمال كما وصل الفولانى الى بلادالتكرور وبدأوا نشاطهم فىغرب افريقية فتضاءلت تدريجيا أرض المملكة حتى عادت الى ما كانت عليه حول نيونو وجنى فى الوقت الذى أخذ الصنغاى وأهل وماسينا يتوسعون على حسابها ويستقلون بأرضهم عن الملوك الضعاف فى حاضرة مالى ولم تنطو صفحة هـذه الامبراطورية العظيمة نهائيـا بل انكمشت وعادت الى ملك صغير حتى قضى عليها فى القرن السابع عشر على يد البامبارا الذين كونوا مملكة سيجو .

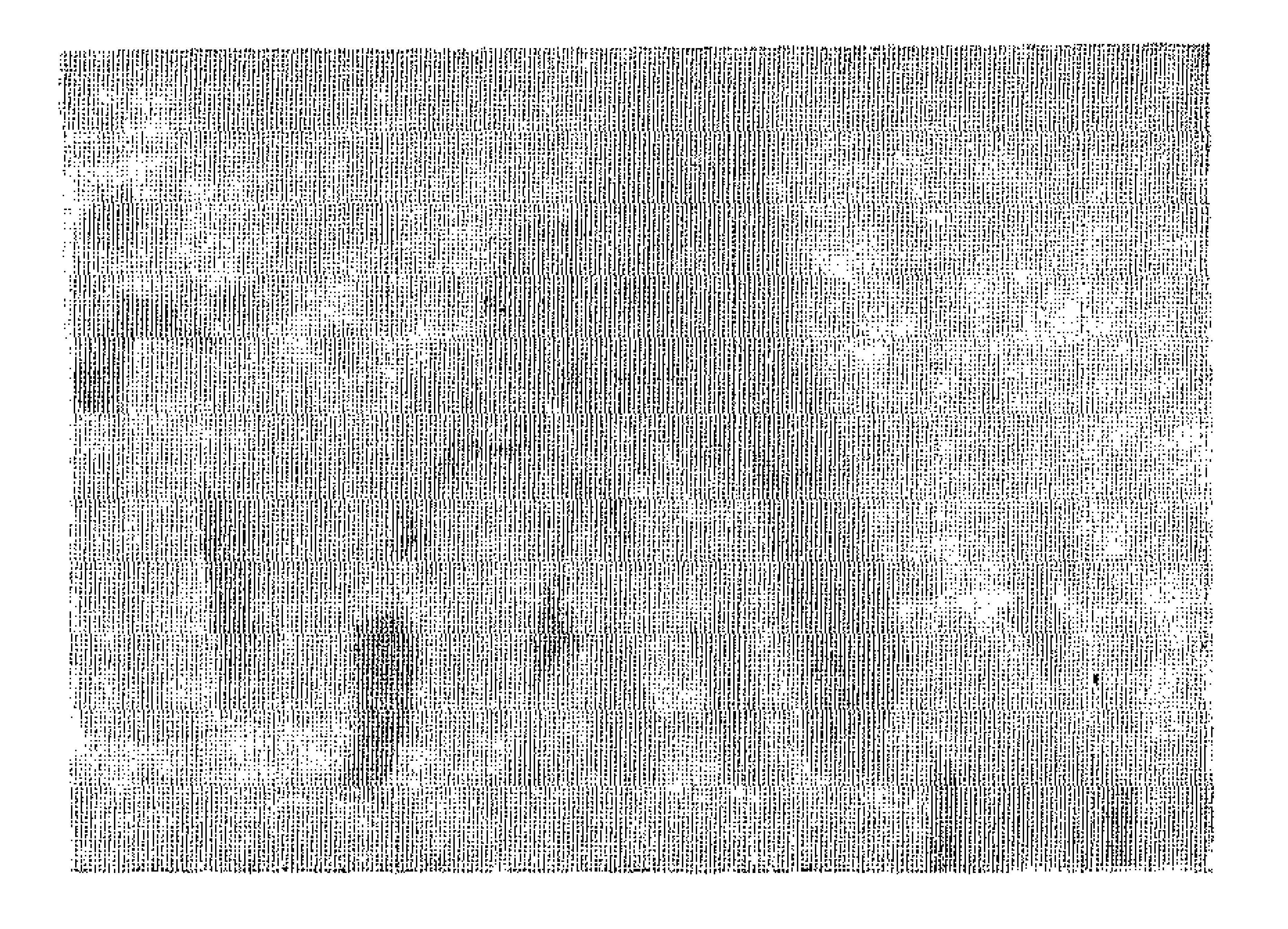
ومع بدء انكماش امبراطورية مالى فى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الميلادى بدأت مملكة اخرى هى مملكة

صنغاى تنمو تدريجيا الى امبراطورية لتحل محل امبراطورية مالى وتخلفها فى توحيد ديار الاسلام فى أواسط وأعالى النيجر وكانت مملكة برنوكانم فى قطاع بحيرة تشاد نامية حية بالاسلام فى ذلك الوقت ، وبينهما امارات الهاوسا متحدة أحيانا ومتفرقة فى احيان أخرى .

نشأة صنغاى وتطورها

ابتداء من أواخر القرن الثالث عشر حتى أواخر القرن الرابع عشر خضعت جاو لنفوذ ملوك مالى ،ولما كانت هذه السيطرة غير مكتملة فقد استطاع بعض ملوك الصنغاى أن يعملوا على تقوية ملكهم ويعتبر على كولون الذى عرف باسم سونى على هو أول من عمل على تقوية ملك الصنغاى حتى استطاعوا فى خلال قرن ونصف من الزمان أن يخلفوا مالى فى حكم أكبر جزء من غرب افريقية فى حوض النيجر الأوسط والأعلى ، ولئن كان على كولون هذا قد استقل ببلاد الصنغاى الأصلية عن مالى الا أن أخاه سليمان بار قد أعاد الصلة ثانية فى عهد منسى ماجان موسى الذى نشأ معه صبيا فى بلاط الامبراطور منسى موسى ، وتعاقب على حكم الصنغاى فى جاو ملوك بعضهم مسلمون والبعض غير مسلمين حتى تولى الملك سونى على بار (أى على الكبير) الذى اخذ يحارب المسلمين وأقام حروبا شعواء واشاع الخراب فى البلاد التى غزاها مثل تمبكتو وجنى ، كما جرد حملات ضد الدوجون المسالمين والفولانى فى مساسينا وكان عداؤه للاسلام واضحا رغم انتمائه الظاهر للاسلام ، وخلفه سونى بارو الذى لم يكن مسلما ، فدعاه أحد رجال سونى على بار ويسمى محمد تورى من الصنغاى الذين عاشوا فى تمبكتو الى الاسلام فرفض فقام محمد تورى بالاستيلاء على السلطة بالقوة ولقب نفسه بلقب اسكيا اى أمير المسلمين وانتهت بذلك أسرة سونى التى تردد ملوكها بين الاسلام والوثنية الى أسرة اسكيا المسلمة وكان أول ملوكها اسكيا محمد تورى هذا .

وبدأ اسكيا محمد بتقسيم مملكته الى ست مقاطعات هى :



سنكوري
جامعة تمبكتو القديمة



مسجد جني
طراز القرن السابع عشر

كورمينا ، دندى ، بارا ، درما ، بانجو أو البحيرات ، هاموربى وأريبندا .

يحكم كلا منها حاكم يسمى فارى أو فارما ، ثم حج الى مكة عام١٤٩٧م (٩٠٣ هـ) وأتجهت رحلته الى القيروان ثم الى القاهرة وكما فعل منسى ملك مالى فعل اسكيا محمد ، فقد عاد وقد صحب معه من مكة المكرمة عالما يسمى التريف الصقلى مغربى الاصل ، كما جاء بأفكار جديدة لاقامة حضارة اسلامية اقامت الصلة بين غرب افريقية من جهة وبين الشرق العربى والشمال الافريقى من جهة أخرى .

وعلى مثال امبراطورية مالى يعتمد جزء كبير من أخبار الصنغاى على الآثار المروية المتواترة والتى عاشت كتاريخ فى ذاكرة الرواة الذين اعتادوا ان يتغنوا بها ويتوارثها هؤلاء الرواة أبا عن جد حتى وصلت الى اسماع دى لافوس ومونتيى اللذين جمعا الكثير عن تاريخ تلك البلاد ، هذا بالاضافة الى المخلفات الأثرية من أطلال القصور ومن مساجد مقامة وما زالت قائمة حتى يومنا هذا ومقابر كبيرة للملوك وشواهد قبور الأمراء والعلماء التى كشف عنها خلال الثلاثين سنة الماضية ومازال المزيد منها يكشف منه بين يوم وآخر .

ولعل أهم مصدر حديث عن تاريخ الصنغاى هو الكتاب الذى سطره الحاج بوبو هامانى (١) وزير المعارف السابق فى حكومة جمهورية النيجر والذى ضمنه الاثار المروية بالاضافة الى كتابات محمود كعت فى تاريخ الفتاش وعبد الرحمن السعدى فى تاريخ السودان عن هذه المملكة كما يعتبر كتاب جون روش الذى نشره

---

(١) BOUBOU HAMA; & BOULOIS; L'Empire de Gao, Paris, 1954.

المعهد الفرنسى لافريقيا السوداء فى داكار (١) من أهم مصادر المعلومات الحديثة عن الصنغاى .

واعتمادا على الآثار المروية والقصص الاسطورية التى جمعت عن الصنغاى وأهمها تلك التى جمعها يعقوبا بدأ الصنغاى حياتهم بملك يسمى ذا الأيامن واعقبه خمسة عشر حكموا فى مدينة كوكا وقد استطاع سوروكو بعد ذلك أن يسيطر على الملك وينتقل الى جاو واتخذها حاضرة له ثم استعادت جماعة « الزا » ملكهم ثانية فى جاو ، وابتداء من القرن الثامن حتى القرن الحادى عشر الميلادى خضعت تلك البلاد لملوك غانا حينما بدأ الاسلام يظهر على يد المرابطين أو التجار ، ويذكر عبد الرحمن السعدى فى تاريخ السودان أن ملك الصنغاى زاكوسوى اعتنق الاسلام فى عام ١٠١٠م (٤٠١ هـ) وسمى لذلك مسلم دام ومعناها « الذى وضع نفسه فى الاسلام » وكان ذلك على يد التجار العرب الذين كثروا فى جاو فى ذلك الوقت ، ويذكر البكرى المتوفى ١٤٦ — ١٠٦٨ م) أن جاو حاضرة كاوكاو كانت مقسمة الى قسمين قسم يسكنه الملك وقسم يسكنه التجار المسلمون ، وكما ذكر البكرى أيضا أن أحد ملوكهم رغم اعتناقه للاسلام وتوليه الحكم على أساس القرآن الا أنه احتفظ بتقاليده الوثنية فى حياته (٢) .

وبعد عودة أسكيا محمد من رحلة الحج بدأ يوسع رقعة ملكه حيث أخضع مالى وديارا وجالام وكتيكورو ، كما حارب الموشى فى الجنوب حينما رفض ملوكهم دعوة الاسلام فى بلادهم وحاربوها ، وفى عام ١٥٢٠ م امتدت مملكة الصنغاى بحيث شملت كل الأراضى التى فتحها سونى على بار بالاضافة الى مالى فى الغرب وامتدت الى بلاد الهاوسا فى الشرق ، فكانت أوسع نطاقا من ملك مالى ومن ثم كانت أقدر على اقامة الحضارة خلال قرن ونصف من الزمان فى غرب أفريقية .

---

(١) J. ROUCH; Contribution a L'Histoire des Songhay, Dakar, I.F.A.N., 1953.

(٢) لعله يشير الى على بار الذى سبق ذكره .

ولقد بدات المملكة فى أواخر عهد اسرة اسكيا تضمحل وتضعف وذلك نتيجة للانفاق الكبير على الفتوحات ولبداية ضربات الطوارق من الشمال وثورات الممالك فى داخل الامبراطورية ، والتنافس على الملك فى داخل الاسرة ، وبدأ الحكم فى عهد أسكيا داوود يقيم صلات قوية بين المغرب وصنغاى حيث ارسل مولاى احمد المنصور الذهبى ملك المغرب بعثة الى جاو حيث كان أسكيا داوود قد سمح لهم باستغلال الملح فى تغازه نظير عشرة آلاف دينار ، ولكن هذه البعثة وجدت مدينة جاو فقيرة .

وفى عام ١٥٨٤م (٩٩٢ هـ) وصلت حملة مراكشية عبر الصحراء وتبعتها حملة اخرى عام ١٥٩١م لم يزد عدد الذين وصلوا عبر الصحراء فيها عن ثلاثة آلاف جندى وقد التقى الجيش المغربى هذا بجيش الصنغاى فى معركة « تونديى » التى دخل بعدها القائد جودر باشا الى جاو وفى ١٢ سبتمبر ١٥٩١ وغادر جودر باشا البلاد لما وجدها فقيرة فى الذهب على خلاف ما كان يظن وترك القيادة لزميله محمد المراكشى ، وقد قامت معارك متعددة بين المراكشيين والصنغاى وانتهى أمرها الى استقرار بقايا الجيش المغربى فى تمبكتو وجاو مكونين طبقة جديدة عرفت باسم الأرما ، ظلت زمنا تجمع الأتاوات من الناس ، ويتنازع أفرادها الحكم حتى انه تعاقب على حكم تمبكتو ١٢٠ حاكما خلال تسعين عاما .

ومما يستحق الذكر هنا ان جيش المنصور أحمد ملك المغرب قد فعل فى تمبكتو وجاو مثل ما فعل الجيش العثمانى حينما دخل القاهرة فقد نقل الكتب كما نقل العلماء الى فاس عاصمة المغرب فحرمت البلاد من كثير مما امتازت به من علوم وآداب وبدأت فترة من الاضمحلال الحضارى فى غرب أفريقية عاصرت بداية الاستعمار البرتغالى والحرب الصليبية على أفريقية وتكوين ممالك صغيرة بعضها اسلامية وبعضها غير اسلامية ، استطاع الاستعمار ان يجد فى تفرقها وتعددها منفذا له الى داخل البلاد .

برنو وكانم

كانت بلاد تشاد شرقها وغربها موطنا لقبائل متعددة قبل أن تسكنها عناصر الكانم وعناصر الكنورى ، وقد سكنت الكانمبو او عناصر الكانم فى شرقهـا والكنورى فى غربها ، وقد عرفت هـذه الجماعات فى بلاد تشاد مبكرا فى القرن التاسع الميلادى (اواسط القرن الثالث الهجرى) والمرجح ان تكوين اول أسرة حاكمة اسلامية وهى أسرة سيف وقد بدات تسيطر على هذه البلاد وتخضع لنفوذها سائر الجماعات التى كانت تسكن المنطقة فى أواخر القرن العاشر حيث لقب ملك كانم ابراهيم لاول مرة بلقب«ماى» ومعناهاصاحب الأرض واتخذ من مدينة أندجيمى فى شمال شرقي البحيرة حاضرة لملكه وبدأ التوسع الاسلامى فى عهد الملك « أوهى » أو « هومى » الذى حكم من ١٠٨٥م(٤٧٨ هـ) الى ١٠٩٧م(٤٩١ هـ) وقد روى أنه قتل فى طريق العودة من الحج .

ويذكر الكاتب الفرنسي أورفوى أن صلة هذه البلاد بمصر قد ساعد على نمو الحضارة والتعليم بها حتى أصبحت مركزا للحضارة فى قطاع النيجر (١) .

وفى نفس الوقت الذى تكونت فيـه مملكة كانم الاسلامية فى الشرق كان أثر التجار ومن اقتفى أثرهم من العلماء قد بلغ الجانب الغربى من البحيرة فى عهد المرابطين وكان نفوذ ملك كانم قد امتد اليها فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ونقلت حاضرة البـلاد اليها .

ولما كان نقل حاضرة الملك الىغرب البحيرة نتيجة للاضطرابات المحلية التى سببتها جماعات الفولا ، وحيث قتل اربعة من ملوك

(١) Y. URVOY; Histoire de l'Empire de Bornou, Paris, 1949, p. 23.

الكانم فى حاضرتهم اندجمى ، وكان آخرهم السلطان عمر الذى نقل حاضرة الملك الى الجانب الغربى من البحيرة الى مدينة « كاغا » حيث تحالف مع الكتورى وأصبحت المملكة تسمى منذ ذلك الوقت باسم برنو ، وظلت جماعات الفولا تحكم الجانب الشرقى من بحيرة تشاد حتى عهد الملك محمد فى القرن السادس عشر الميلادى حينما استبعدت اندجمى وتم توحيد البلاد ثانية .

ومما يستحق الذكر ان الكتاب العرب قد تحدثوا كثيرا عن هذه البلاد وعن صلاتها بمصر فالقلقشندى فى صبح الاعشى يتحدث عن وصول كتاب « ملك البرنو فى أواخر الدولة الظاهرية (برقوق) يذكر فيه أنه من ذرية « سيف بن ذى يزن » من أعقاب تبابعة اليمن من حمير (١) . ولعل هذا هو ما جعل ملوكهم الأوائل يطلق عليهم اسم السايفاوا .

كما جاء ذكر بلاد الكانم أيضا فى تقويم البلدان : « وأول من بث الاسلام فيهم الهادى العثمانى ، ادعى أنه من ولد «عثمان بن عفان» رضى الله عنه ، وملكها ثم صارت بعده لليزنيين .

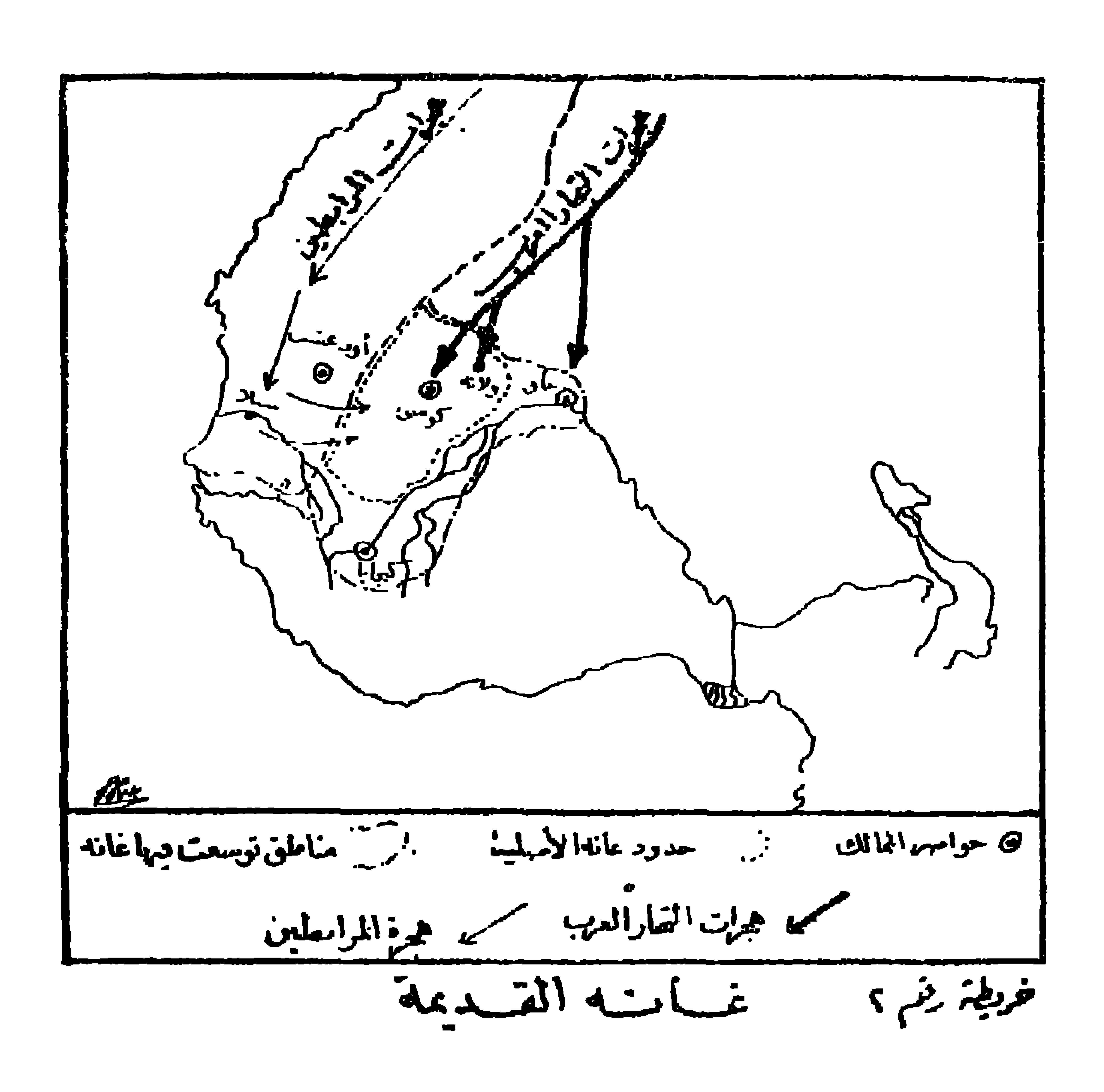
وذكر القلقشندى أيضا عن التعريف : « ان سلطان كانم من بيت قديم فى الاسلام ، وقد جاء منهم من ادعى النسب العلوى من بنى الحسن » ثم قال : « والعدل قائم فى بلادهم ويتمذهبون بمذهب الامام مالك رضى الله عنه ، وهم ذوو اختصار فى اللباس ، يابسون فى الدين ، وعسكرهم يتلثمون، وقد بنوا مدرسة للمالكية بالفسطاط ينزل بها وفودهم » (٢) .

ومما يستحق الذكر هنا هو ما جاء عن العلاقات الوثيقة مع مصر من خلال الرسائل وبيوت العلم التى أنشأوها لينزل فيهـا رجالهم ، ويؤكد هـذه الصلة العلمية والثقافية وجود أروقة فى

---

(١) صبح الاعشى الجزء الخامس ص ٢٧٩ .

(٢) المرجع السابق الجزء الخامس ص ٢٨١ .



خريطة رقم ٢ غانة القديمة

الأزهر أحدها رواق صليح الذى ينزل به طلبة تشـــاد ورواق البرناوية ورواق الكانمية ، واعتاد سلاطين كانم وبرنو أن يمروا بمصر فى طريقهم الى الحج والعودة منه ، كما أن الكانميين كانوا يمثلون فى مصر طائفة هامة تمارس التجارة فى الأســواق المصرية طوال العهد المملوكى .

ولقد كان عهد ماى ادريس ألوما من ١٥٧١ م (٩٧٩ هـ) الى ١٦٠٣م (١٠١٢هـ) من أهم فترات ازدهار ملك برنو ، فقد استطاع ماى ادريس ألوما : على ما يذكر ابن فرتوا مؤرخ العصر أن يخضع قبائل البربر فى الشمال وينتصر على الهاوسا فى الغرب وعلى قبائل الزنج فى الجنوب واستقرت فى عهده البلاد وبعد مقتله عام ١٣٠٦ م خلفه عدد من الملوك حافظوا على البلاد حتى تولى الملك ماى على عمر من ١٦٤٥م(١٠٥٥ هـ) الى ١٦٨٤م (١٠٦٩هـ) فحارب الطوارق مرة اخرى تدعيما للملك .

ولقد ظلت مملكة برنو تتعرض لغزوات ملوك ياجرمى والطوارق والزنج من الجنوب والهاوسا من الغرب حتى مطلع القرن التاسع حينما تولى محمد الأمين الكانمى الحكم ولقب بشيخ برنو واتخذ كوكا (١) الواقعة على ضفة النهر غرب بحيرة تشاد حاضرة له،وبدأ يدعم مملكته وقد عاصر حركة عثمان دن فوديو الزعيــم الفولانى الشهير الذى قام بحركة اصــلاح دينية فى نيجيريا فى ذلك الوقت وخلفاؤه وكانت هناك بعض الرسائل المتبادلة بين عثمان دن فوديو وشيخ برنو بشأن ازالة البدع واقامة السنن أدت الى حدوث بعض الحروب بينهما ولكنها انتهت بسلام ساد بعد خطاب أرسله شيخ برنو الى محمد بللو قائد جيوش عثمان بوقف الاعتداءات بينهما وكان ذلك فى عام ١٨١٧ م .

---

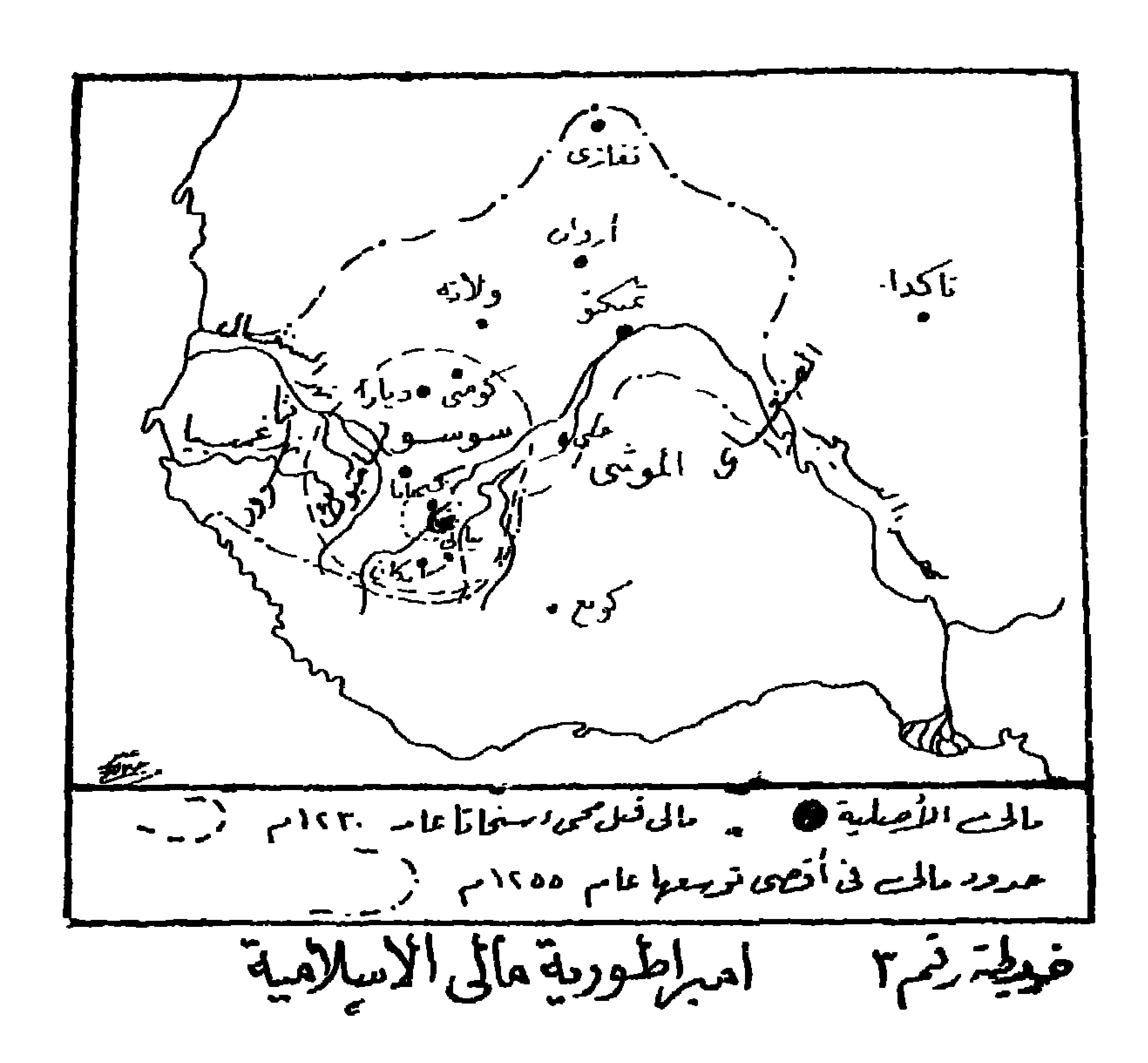
(١) هى الآن مايدجورى عاصــمة الولاية الشمالية الشرقية فى نيجيريا .

وتتابع خلفاء شيخ برنو على الحكم حتى ١٨٨٩ م حينما بدأ رابح فضل الله حركته المضادة للاستعمار الفرنسى مستوليا على اجزاء من أراضى ملك برنو الشرقية ، وباعلان الحماية على شمال نيجيريا عام ١٨٩٧ أصبحت بلاد برنو غرب بحيرة تشاد تابعة لمحمية شمال نيجيريا وأصبح الجزء الشرقى من البحيرة داخلا فى مستعمرة تشاد التى خضعت للنفوذ الفرنسى بعد القضاء على حركة رابح فضل الله وظل شيوخ برنو بعد الاستعمار يحافظون على اسلام شعبهم ضد محاولات الاستعمار ومازال اميرهم أو شيخهم اليوم يعمل على تدعيم الاسلام فى بلاده فى شمال شرق نيجيريا .

ممالك الهاوسا

فى رواية متواترة بين شعب الهاوسا فى شمال نيجيريا أن أجداد الهاوسا عاشوا فى مدينة داورا يعتمدون فى حياتهم على بئر يمدهم وماشيتهم بالماء ، وظهرت حية مخيفة تقطع عليهم الطريق الى البئر من وقت لآخر ، وظلت زمنا تنغص عليهم حياتهم حتى وصل امير عربى من الشمال يسمى يزيد بن أبى اليزيد كان شجاعا مقداما فبارز الحية حتىقطع رؤوسها السبع فزوجه أمير جوبير من ابنته الوحيدة التى خلف منها أبنه باوا ، وخلف باوا ستة أولاد هم : رانوا ، وزاج زاج أوزاريا ، وجوبير ، وكاتسينا ، وبيرام ، وكانو وقد أقام كل منهم فى موقع وكون مدينة أصبح أميرها وبذلك تكونت امارات الهاوسا السبع الأصلية (هاوسا باكواى) وقد نشأت سبع أمارات مدن أخرى سميت (بانزا باكواى) هى : كبى ، وكوروفا ، وايلورين ، ونوبى ، ويلوا ، وزمفارا وقد اتخذت هذا الاسم أى السبع غير الشرعية باعتبار أن أمراءها ليسوا من نسل يزيد بن أبى اليزيد لأنهم غير مسلمين .

وهذه الاسطورة عن أصل امارات المدن فى بلاد الهاوسا ترجع بهم الى أوائل القرن الحادى عشر مما يؤكد لنا ان الاسلام قدانتشر



خريطة رقم ٣ امبراطورية مالى الإسلامية

فى تلك البلاد خلال القرن السابق اى فى القرن العاشر بدليل أن أميرا عربيا قد عرف البلاد وسار اليها .

ومنذ أن تولى حفدة يزيد الملك فى مدن الشمال النيجيرى والاسلام ينتشر بين الهاوسا حثيثا ، ولئن تعرض فى بعض الفترات لمؤثرات وثنية وعودة الى تقاليد الجاهلية الاانه كان يظهر من وقت لاخر امراء يعملون على اصلاح الدين مثال ذلك محمد وروموفا أمير كانو من عام ١٤٦٣م (٨٦٨ هـ) الى ١٤٩٣م (٨٩٩ هـ) والذى استدعى بعض العلماء من مصر ومنهم المغيلى ، للفتوى فى أمور الدين ، ويذكر أن محمد وروموفا قد قضى على الكثير من آثار الجاهلية التى كانت قد تفشت فى وسط شعب الهاوسا من العهود السابقة عليه .

ومن امثلة هؤلاء الملوك المصلحين أيضا ملك كاتسينا مادجى ابراهيم الذى حكم من ١٤٩٤م (٩٠١ هـ) الى ١٥٢٠م(٩٢٧هـ) ودعا المغيلى كذلك الى بلاده ليفتى فى أمور الدين ويساعد فى سياسة الملك (١) .

ولم تكن امارات مدن الهاوسا منفصلة عن بعضها بل كانت فى فترات متعددة من التاريخ تكون نظاما سياسيا على نمط فيدرالى فلكل امارة استقلالها وكانت احدى الامارات تمثل السلطة المركزية التى تبسط نفوذها على الامارات الأخرى وتقف موقف المدافع عنها ضد الغزوات الخارجية وكانت أمارة كانو تعتبر الأمارة المركزية فى الشمال وخلفتها كاتسينا فترة من القرن الخامس عشر ولقد واجهت أمارة كانو غزوات ملوك مالى كما واجهت أمارة كاتسينا غزوات ملوك الصنغاى ، وكانت زاريا (زاج زاج) تسيطر على أمارات الجنوب غير الشرعية وبخاصة كبى ونوبى . كما قامت مملكة جوبير فى أواخر القرن الثامن عشر فى عهد الأمير دان جودى

(١) ROBERT CORNIVIN: Histoire des Peoples de l'Afrique Noire, Paris, 1962, p. 322.

بدور هام فى حماية بلاد الهاوسا من غزوات الطوارق فى الشمال(١) غير أن أمارة كانو ظلت طيلة عهـود التاريخ أكبر مركز تجـارى ، وأقوى امارات الهاوسا ، وحامية الدين الاسلامى فى البلاد .

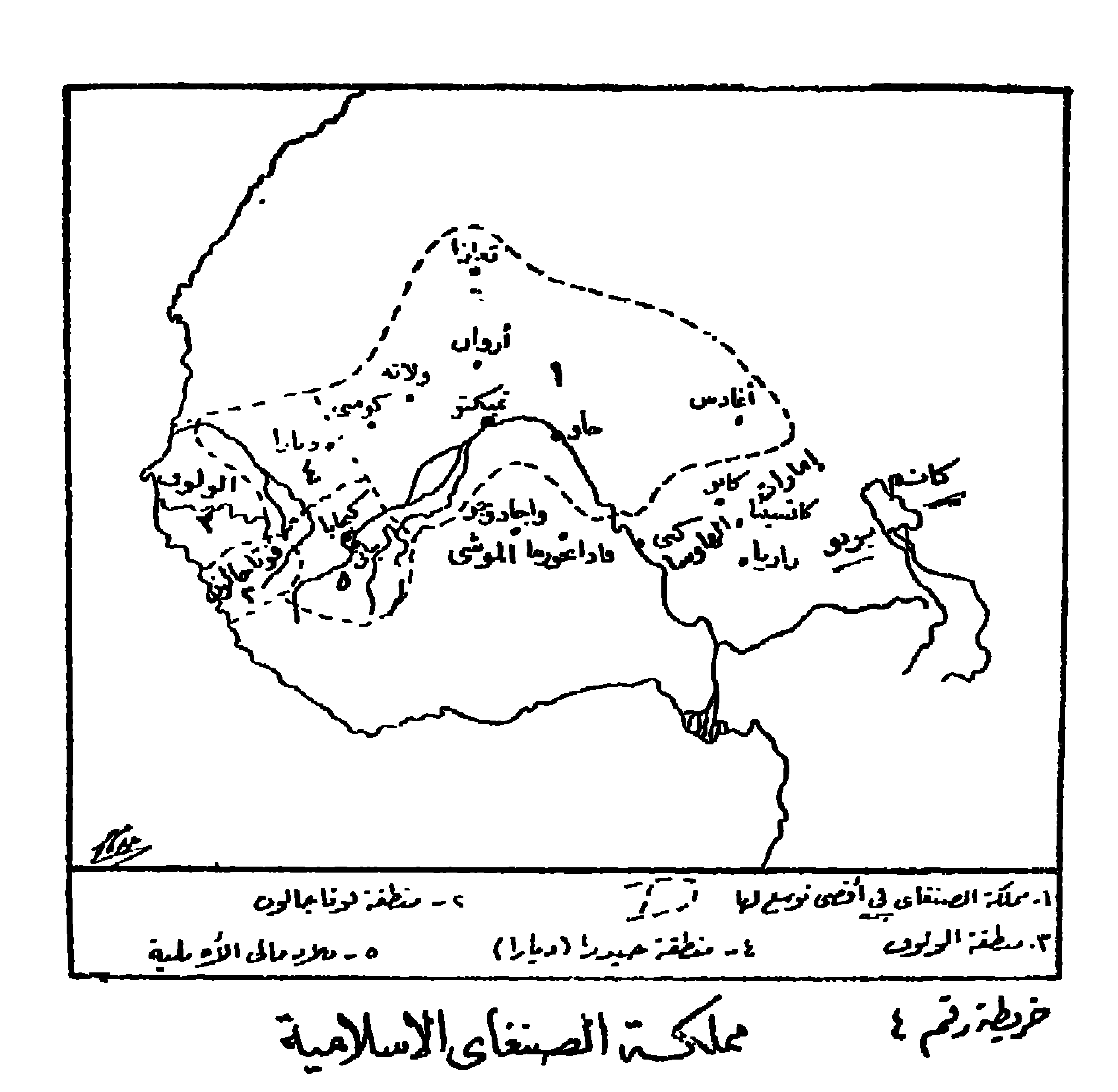
ومما يستحق الذكر ان مدن الهاوسا الرئيسية اتخذت منذ نشأتها طابعا مميزا لها فى غرب أفريقية فهى مدن محاطة بأسوار لها أبواب تتجه الى القرى والمدن الأخرى الخاضعة للنفوذ المباشر للامارات وتبدأ عندها وتنتهى اليها الطرق التجارية ، وفى داخل الأسوار يتوسط المدينة قصر الأمير ومن خلفه السجن وأمامه دار القضاء الشرعى ومقر رجال الوزارة والحكم وتنقسم المدينة الى احياء متعددة تأخذ أسم الأسرة الكبيرة ويسمى كل حى منها باسم « حارة » وتختص بعض الأحياء بالصناعات المحلية المشهورة مثل النسيج والتطريز وصناعة الأوانى الفخارية والسلال وصناعات الجلود وسروج الخيل الى غير ذلك .

وفى خارج المدينة تمتـد المراعى والمـزارع التابعـة للامارة وتنتشر القرى والمدن الصغيرة التى يحكم كلا منها رئيس خاضع للامير يسمى « ساركى » .

وقد نظمت امارات الهاوسا تنظيما سياسيا واداريا دقيقا اذ يساعد الأمير وزير اكبر يحمل اسم « وزير » العربى الأصل وقائد للجيوش يسمى « مداكى » وقائد للشرطة والحسبة يسمى «ساركن دواكى» اى امير الفرسان ورئيس للمستخدمين يسمى « ساركن فادا » وخازن للامارة ، ويساعد الوزير وكلاء لمختلف الشـئون مثل « وكيلن صناعة » اى وكيل شئون الصناعة « ووكيلن روا » اى وكيل شئون الزراعة (روا معناها الماء) وغير ذلك من التخصصات .

ومازالت امارات الهاوسا قائمة حتى يومنا هذا بعد أن تطورت شئون الدين بها ، منذ قيام حركة عثمان فديو التى سنشير اليها فيما بعد . وما زالت تحتفظ فى نطاق الحكم المحلى بشكلها التقليدى

(١) المرجع السابق ص ٣٢٣ .



خريطة رقم ٤ مملكة الصنغاي الإسلامية

وطابعها الاسلامى ونظمها الدقيقة وهى عون للحكومة المركزية على نشر التعليم والاصلاح فى نطاق الاتحاد الفيدرالى لنيجيريا .

ممالك أخرى فى غرب افريقية

بعد سقوط مملكة الصنغاى عادت بلاد الماندى الى التمزق الذى كانت عليه قبل توحيدها على يد ملوك مالى وملوك الصنغاى من بعدهم ، فتكونت ممالك البامبارا فى كل من سيجو وقارته فى أعالى النيجر ، ويبدأ تاريخ البامبارا كمملكة فى أواخر القرن السادس عشر حينما سقطت امبراطورية الصنغاى فى يد المغاربة وقد استطاع شعب البامبارا من أن يوسع نطاق نفوذه فى عهد حكم خالديان كوليبالى الذى حكم فى الفترة من ١٦٥٢ م (١٠٣٦ هـ) الى ١٦٨٢ (١٠٦٥ هـ) واتخذ سيجو عاصمة له وظل ملوك البامبارا يحكمون حتى أوائل القرن التاسع عشر حينما بدأ الملك الفولانى يتسع على يد سيكو أحمد الذى أخذ يوجه ضرباته للبامبارا الذين ترك بعض ملوكهم شعائر الاسلام وعادوا الى جاهليتهم الأولى .

وفى السنغال والساحل الغربى تكونت ممالك اسلامية أخرى على يد زعماء الوولوف والسرير فقد ظهرت مملكة الوولوف لاول مرة فى تاريخ غرب افريقية فى عهد زعيمهم امارى جونى الذى انشأ عاصمة الملك الجديدة فى أمبولى فى عام ١٥٤٩ م (٩٥٦ هـ) وكان الاسلام قد بدأ ينتشر بينهم منذ عهد المرابطين .

والى الجنوب من السنغال والنيجر تجاه الفلتا وساحل غانا تكونت ايضا عدد من الممالك الصغيرة على يد الماندى المهاجرين الذين عرفوا باسم « الديولا » والذين هاجروا بالاسلام الى مدن الجنوب للتجارة والقيام بالدعوة فسادوا وسط الجماعات البدائية التى نزلوا بأرضها وأخضعوها لملكهم وحكموها بالاسلام ، ومثال ذلك مملكة جونجا فى شمال غانا ومملكة كونغ التى تكونت فى أعالى فولتا على يد سيكوكاتارا ، وقد سقطت مملكة كونغ عام ١٨٢٥ م على يد ملوك جدد من كنيديجو وكانوا مسلمين .

وكان ملك ساموري توري من ١٨٧٠م الى ١٨٨٨ م هو آخر ممالك الماندي الاسلامية حيث استطاع الفرنسيون فى زحفهم على بلاد غرب أفريقية أن يقضوا على حركته الاسلامية التى حاول بها توحيد البلاد فى مواجهة الهجوم الفرنسى الزاحف عليها .

ومن الممالك الأخرى فى غرب أفريقية مملكة داجومبا التى حكمت شمال غانا من القرن الخامس عشر حتى احتلال البريطانيين لغانا ، وظلت الأمارة فى شمال غانا لأبناء أسرتها الحاكمة حتى وقتنا الحاضر ، ولئن كانت الداجومبا قد بدأت كمملكة فى القرن الخامس عشر الا أن الاسلام لم يدخل اليها الا فى أوائل القرن السابع عشر حينما بدأت تظهر أسماء لملوكهم ذات طابع عربى أو اسلامى ، وفى أوائل القرن الثامن عشر حكمها ملك يدعى أبو بكر الذى عرف باسم « جاريا » وهو اسم شائع لدى الفولانى ، وقد قام جاريا بحركة تجديد فى الدين وتنظيم للحج فى بلاده وظل الحكم فى نسله حتى يومنا هذا .

ومن ممالك الفولانى الأخرى التى نشأت فى غرب افريقية مملكة ليبتوكو فى أعالى فولتا أيضا ، وقد بدأ تكوين هذه المملكة فى أوائل القرن الثامن عشر حيث تولى الملك بيرمالى سالا (من سنة ١٧٠٩م الى سنة ١٧٤٣ م) وخلفه سيديو ثم ابنه باريما (يعنى ابراهيم) من سنة ١٨١٠ م الى ١٨١٧ م ، وقد عاصر ملوك ليبتوكو هؤلاء عصر عثمان دن فوديو وأعلنوا ولاءهم له وورث « باريما » الامارة التى كانت خاضعة لملك عثمان دن فوديو والذى كان قد انتقل فى ذلك الوقت بعد موته الى أخيه عبد الله وابنه محمد بللو .

والمثل يقال عن مملكة ماسينا التى بدأت منذ زمن مبكر فى جنوب مالى منذ القرن السادس عشر حينما بدأ الضعف يدب فى امبراطورية الصنغاى وقد تتابع الملوك فى ماسينا التى تعرضت بعض الوقت لضربات البامبارا ثم عادت الى الازدهار فى عهد سيكو أحمد الذى

ظهر فى أوائل القرن التاسع عشر كمجدد ومصلح وداعية اسلامى ، واتخذ من مدينة حمد الله حاضرة له وأخذ يعمل فى فترة حكمه من ١٨١٠م الى ١٨٤٤ م على القضاء على البدع وآثار الوثنيـــة التى شاعت بين شعب الماندى والفولانى وتولى بعده أحمدو سيكو ثم عبد السلام أحمدو الى أن ظهر الحاج عمر كداعية ومصلح اسلامى واستطاع أن يقود جيوشـــه من جمـــاعات التوكولور ليكون ملكه الاسلامى الذى يواجه الاستعمار الفرنسى فى البلاد كما سنذكر فيما بعد عند دراستنا لحركات الاصلاح الاسلامية .

واذا انتقلنا الى القطاع التشادى من غرب أفريقيـــة نجد الى جانب مملكة برنو وكانم وامارات مدن الهاوسا ممالك اســلامية أخرى متعــــددة مثل مملكة واداى فى دارفور وكردفان بغـــرب السودان ومملكة باجرمى فى تشاد ، وهذه المملكة الأخيرة نشـــأت بالاسلام فى القرن الخامس عشر ، وكانت خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر فى منافسة دائمة مع مملكة برنو حتى سقطت فى يد الفرنسيين .

* * *

هذه المامة عامة بممالك غرب أفريقية الاســـلامية تؤكد لنا دراستها أن الحيوية السياسيةوالثقافية والحضارية قد دبتفىهذه البلاد بدخول الاسلام اليها ، وتوضح لنا صورة لما يفعله الاسلام اذا ما انتشر وسط شعوب بدائية فينقلها الى مدارج الحضـــارة التى تظل تصعد عليها الى أعلى المستويات ، ولم يكن الاسلام ــ اطلاقا ــ ليقف بالحضارة عند حد معين لا تتعداه الشعوب التى اعتنقته ، بل ان الاستعمار قد أتى على هـــذه البلاد بحربه الصليبية وحركاته التبشيرية وسياسته الخاصة التى بها عمل على اضعاف المسلمين ليخلو له المجال ليحكم ويسيطر ويستغل ويسىء الى الاســـلام بدعاواه الكاذبة ، ويوقف الاسلام بالقوة وبالسياسة عن أن يستمر فى اداء دوره الحضارى كما فعل فى معظم بلاد غرب وشرق افريقية كما سنرى عند دراسة المؤثرات الخارجية .

الفصل الثالث

تطورات الحكم الاسلامي فى شرق افريقية

ليس هناك أى نص تاريخى أو حدث ثابت يدل على أن الاسلام فى شرق افريقية قد فرض بالقوة أو الضغط أو الارغام وانما كان الوجود الاسلامى فى غرب أفريقية من بدايته حتى يومنا هذا مثالا للامن والتعايش السلمى الذى صحب دخول الاسلام وانتشـاره ولعل مواجهة شرق افريقية للجزيرة العربية كان من عوامل انتشار الاسلام بها فى وقت مبكر ، وقد ساعد على ذلك قيام صلات سابقة على الاسلام بين جنوب غربى آسيا والجزيرة العربية من جهة وشرق افريقية من جهة اخرى فعبر البحر الاحمر حيث كانت الصـلة قائمة بين الحبشة وبلاد اليمن والحجاز على مر التاريخ القديم ، كما كانت الصلة قائمة عبر المحيط الهندى بين جنوب الجـزيرة العربية والساحل الشرقى لافريقية فى التجارة الموسـمية قرونا عديدة قبل ظهور الاسلام .

ومن المؤكد بحكم الموقع الجغرافى لشرق افريقية تجاه الجزيرة العربية أن الاسلام قد دخل اليها قبل دخوله الى غرب افريقيـة بأكثر من قرن من الزمان على الأقل ، ذلك أن مسـيرة الاسـلام الطويلة على طول الساحل الشمالى حتى استقر فى مناطق التأثير ثم عبوره الصحراء الى مناطق القابلية قد أخذ زمنا حتى وصل اليها . بخلاف شرق أفريقية الذى كان الاحتكاك بينه وبين الجزيرة العربية قائما منذ عهود ما قبل الاسلام فلما جاء الاسـلام كانت أول هجرة اسلامية الى شرق افريقية حيث أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه بالهجرة الى الحبشة وقال لهم :

ان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه (مما يتعرضون له من أذى الكفار) .

ولقد تطور الاسلام والحكم الاسلامى فى شرق أفريقية فى قطاعين اتخذ فى كل منهما صورة خاصة بحكم موقعه الجغرافى وظروفه البشرية ، وهذين القطاعين هما :

القطاع الحبشى الصومالى وقطاع ساحل المحيط الهندى .

الاسلام فى القطاع الحبشى الصومالى

كان أول احتكاك الحبشة بالاسلام فى السنة الخامسة من النبوة حينما خرج المهاجرون من مكة خفية فى شهر رجب فوصلوا الى ساحل البحر وركبوا سفينتين الى الحبشة ، ولكنهم لم يستقروا بها وعادوا فى شوال من نفس السنة ، كما اتجهت هجرة أخرى الى الحبشة ضمت عددا كبيرا من الصحابة قيل أن عددهم بلغ الثمانين خلاف النساء والأطفال ولما وصلوا اليها رحب بهم النجاشى وأسكنهم فى مكان مجتمعين ليقيموا شعائر دينهم ، ويقال انه أسلم على يد جعفر بن أبى طالب (١) .

ولئن صح هذا الخبر عن اسلام نجاشى الحبشة أو لم يصح ، فان وجود عدد من المسلمين فى مثل هذا الوسط لا شك قد ساعد على الاحتكاك بشعوب هذه البلاد وأدى هذا الاحتكاك بدوره الى دخول بعض الاحباش فى الاسلام منذ زمن مبكر ، ولكن هناك روايات عديدة تؤكد انتشار الاسلام فى القطاع الحبشى الاريترى جاءت تفصيلا فيما ذكره المقريزى فى كتابه « الالمام بمن بأرض الحبشة من ملوك الاسلام » وفى الخطط أيضا ، كما جاء ذلك فى كتاب « فتوح الحبشة » لمؤلفه أحمد بن عبد القادر شهاب الدين المعروف بعرب فقيه وهو من أهم مصادر تاريخ الاسلام فى الحبشة . ولم تخل الكتابات العربية الأخرى من ايراد ذكر الاسلام فى الحبشة فى أوقات

---

(١) حسب روايات الطبرى فى تاريخه الجزء السابع ص ٣٣٠ — ٣٣٣ .

مبكرة ،ويعتبر ما ذكره الطبرى فى تاريخه عن بعثة أرسلها عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى ساحل البحر الاحمر فى العام العشرين للهجرة للدعوة الى الاسـلام هنـاك دليـلا على الاحتـكاك المبكر بالثقافة الاسلامية ، ويذكر ترمنجهام أن هذه البعثة التى جاءت الى الساحل الارتيرى هم المخذوميون اجداد الجماعة التى كونت فيما بعد مملكة شوا أو مملكة آفار والذى جاء ذكر أول ملوكهـا يحمل اسم المخذومى مؤسس الدولة فى عام ٣٨٣ هـ (٨٩٦م) وقد اكتشف هذه الحقيقة المستشرق الايطالى كوروللى فى عام ١٩٤١ م فى وتيقة عربية عثر عليها عن آخر ملوك الشوا (١) .

ولقد خلف ملك الشوا ملك اسلامى آخر على يد أسرة «ولشاما» وهم مسلمو المدينة المجاورة ايفات (أو أوفات) وذلك فى عـام ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) .

وحتى القرن الرابع عشر الميلادى كان الاسلام قد انتشر انتشارا واسعا فى أرض الحبشة لا فى الساحل فقط حيث تكونت مـدن اسلامية كانت كل مدينة منها تكون ملكا مستقلا ــ وقد جاء فى صبح الاعشى للقلقشندى عن هذه المدن ما نقتبس منه ما يلى :

« ان هناك من بلاد الحبشة ما بيد مسلمى الحبشة ، وهى البلاد المقابلة لبر اليمن على أعالى بحر القلزم وما يتصل به من بحر الهند (٢) ويعبر عنها « بالطراز الاسلامى » لأنها على جانب البحر كالطراز له ، وهى البلاد التى يقال لها بمصر والشام بلاد الزيلع ، والزيلع انما هى قرية من قراها وجزيرة من جزائرها غلب عليها أسمها » .

وقسمها القلقشندى حسب رواية مسالك الأبصار للعمرى ، وتقويم البلدان الى سبعة هى :

(1) Spencer Trimingham, Islam In Ethiopia

(٢) يقصد ببحر القلزم البحر الاحمر ، وبحر الهند المحيط الهندى ..

وفات (أوفات) ، دوارو ، أرابينى ، هدية ، شرحا ، بالى ، داره .

ويقول فى وصف أوفات : « وعن بعض المسافرين أنها من أكبر مدن الحبشة وهى على نشز من الأرض ، وعمارتها متفرقة ، ودار الملك فيها على تل والقلعة على تل ...... وهى أوسع الممالك السبع أرضا » .

وعن دوارو يقول : « انها ذات عسكرجم نظير عسكر اوفات فى الفارس والراجل » .

وهذه الممالك السبع هى محامل مستقلة فى داخل بلاد الحبشة التى يحكمها (الحطى) وقد حكى عن الشيخ عبد الله الزيلعى وغيره (رواية القلقشندى) : أنه لو اتفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم قدروا على مدافعةالحطى (سلطان الحبشة) أوالتماسك معه ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف وافتراق الكلمة بينهم تنافس » .

وقد أورد القلقشندىأيضا أسماءبعض ممالك اسلامية أخرى فى الحبشة ذكر أن المقر الشهابى ابن فضل الله أهملها فى مسالك الأبصار ومنها جزيرة دهلك « وعوان » التى تقابل تهامة اليمن على بحر القلزم واعتبر « مقدشو » من هذه المدن أيضا .

ولقد استطاع بعض الملوك توحيد عدد من هذه الممالك مثل حق الدين سلطان « ايفات » الذى وسع ملكه ولكن أخاه صبر الدين الذى تولى الملك بعده ضم الى المملكة كلا من هادية وداوارو ثم دعا بعض الامارات الأخرى للانضمام اليه .

وفى القرن السادس عشر بدأ عنصر جديد يظهر فى المنطقة ويتدخل فى سياسة الملك بها فمنذ أن ضرب فاسكو داجاما مقديشو بالمدافع عام ١٤٩٩ بدأ مسلمو البحر الأحمر يشعرون بخطر يهددهم مما دعا الى تضامن المسلمين فى اليمن والحبشة والاستعانة بالماليك

والترك المسلمين لمواجهة الخطر الجديد ، كما اتجه ملوك الحبشة المسيحيون الى الاستعانة بالبرتغاليين ، ولما تمكن ملوك الحبشة المسيحيون من ضرب المسلمين واضعاف ممالكهم بمعاونة من البرتغاليين نهض المسلمون لدفع اعتداء الأحباش وفى سبيل ذلك عانوا شديدا وكادت دولتهم التى اتخذت هرر حاضرة لها تنهار لولا أن قام شاب مسلم مقدام اسمه أحمد بن ابراهيم جران ووحد كلمة المسلمين وتولى زعامتهم وعزم على فتح الحبشة (١) .

وكان لتدخل البرتغاليين أثره فى اشتداد حركة الجهاد الاسلامية فقد استطاع المسلمون أن يحرروا أجزاء كبيرة من بلاد الاسلام فى الحبشة ، وفى عام ١٦٣٣ كانت كل بلاد هرر وآفار قد تحررت من نفوذ ملوك الحبشة المسيحيين ، ولكن الضربات استمرت حتى سادت البلاد حالة من الفوضى وعدم الاستقرار . وتولى القيادة بعد الأمام أحمد ابن أخته نور ابن الوزير المجاهد فى عام ٩٥٩هـ (١٥٥١م) وبدأ الفتوح من جديد ولذلك سمى صاحب الفتح الثانى ، ولقبه أهالى هرر بلقب أمير المؤمنين ووسع ملكه فى فاتيجار وجوجام .

وخلف نور الدين أحد أتباعه ولكنه لم يستطع الحفاظ على الملك ، فعادت ممالك المدن الى ما كانت عليه من التفرق بعد أن ركز ملوك الحبشة على ضرب الوحدة الاسلامية فى هذه البلاد بمعاونة البرتغاليين .

وفى خلال القرن التاسع عشر ظهر فى الحبشة عنصر جديد يتمثل فى غزو محمد على للبلاد فى محاولة للسيطرة على سواحل البحر الأحمر ثم المحاولات المتتابعة لسلاطين الاسرة العلوية لتكوين امبراطورية مصرية فى أفريقية ولكن هذه المحاولات كلها انتهت

---

(١) عرب فقيه : أحمد بن عبد القادر شهاب الدين : فتوح الحبشة نشره باسيه عام ١٩٠٥ — الجزء الاول ص ٤١٩ — ٤٢٠ (نقلا عن الترجمة) .

بالفشل فقد كان الاستعمار يتقدم بخطى واسعة فى تلك المناطق ، وساعد ملوك الحبشة على توحيد البلاد تحت امرتهم وأصبح المسلمون طبقة مغلوبة على أمرهم فى تلك البلاد منذ ذلك الوقت .

ويرتبط الاسلام فى الصومال بالاسلام فى الحبشة حيث أن الصومال كانت امتدادا لاراضى الجالا وبعض القبائل الأخرى المتفرقة ـ وقد جاء فى كتاب بغية الآمال فى تاريخ الصومال الذى عثر عليه مخطوطا ونشر لأول مرة فى مؤتمر علماء التاريخ والآثار فى مقديشو سنة ١٩٥٥ ويعد من أهم الآثار المخطوطة عن تاريخ الصومال ـ جاء فيه أن شعب الصومال الحقيقى قد هاجر من اليمن فى القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) وقد إخذ شعب الصومال يتكاثر ويحتل أجزاء من البلاد ويجلى عنها القبائل السابقة ليأخذ مكانها ، وقد بدأت حركة توسع الصوماليين منذ عهد الأمير أحمد جران ـ الذى يعتبر صومالى الأصل ـ نحو الجنوب فى القرن الرابع عشر وينشرون الاسلام ويختلطون بالسكان الاصليين .

ولقد عرفت مقديشو كواحدة من المدن الاسلامية فى ساحل شرق أفريقية ، وتكونت كمملكة اسلامية مستقلة فى تلك البلاد تقف على رأس التجارة بين هذه البلاد وبين جنوب الجزيرة العربية وقد سكنها عدد من المهاجرين العرب ، ويقول عنها (القلقشندى) .

« وقد أتى الخطى ملك الحبشة على هذه الممالك (يقصد عوان ومقديشو ودهلك) بعد الثمانمائة وخربها وقتل أهلها وحرق ما بها من المصاحف واكرهالكثير منهم على الدخول فى دين النصرانية» .

ولم تنقطع الهجرات العربية من جنوب الجزيرة العربية الى ساحل الصومال وكان المهاجرون العرب يعملون على نشر الاسلام بين من لم يعتنق الاسلام من القبائل هناك ، ومن أمثلة ذلك ان جاءت من حضرموت جماعة مؤلفة من اربعة وأربعين عربيا نزلوا فى

بربره على شاطىء الصومال الشمالى ، وانتشروا فى بلاد الصومال يدعون الى الاسلام ، وقد شق أحد هؤلاء وهو الشيخ ابراهيم ابو زرياى طريقه الى هرر حول عام ١٤٣٠ واستطاع أن يحول كثيرا من الأهالى الوثنيين هناك الى الاسلام ولا يزال قبر هذا الشيخ موضع تبجيل فى تلك المدينة (١) .

ولقد كان لاحتكاك مصر بهذه البلاد فى أواخر القرن التاسع عشر من أهم عوامل تثبيت الاسلام فى القطاع الحبشى الصومالى الاريترى ، فقد اشترت الحكومة المصرية ميناء زيلع من تركيا فى يونيو ١٨٧٥ ثم استولت على بربرة فى نفس السنة ، وقد كانت سواحل البحر الأحمر والصومال الشمالى ومنطقة هرر خاضعة للنفوذ المصرى منذ أوائل القرن ، ولكن بدأ التنافس الدولى والاحتكاك بين مصر وكل من فرنسا وانجلترا وايطاليا فى نهاية القرن وارتبط ذلك بالاحتلال البريطانى لمصر الذى أدى الى تصفية الوجود المصرى من شرق أفريقية نهائيا .

ولقد قامت فرنسا أول ما قامت بشراء بعض المواقع مثل أوبوك عام ١٨٦٢ م لازالة النفوذ المصرى منها ، وكان الحكم الخديوى فى مصر فى ذلك الوقت على استعداد للتنازل مما أدى الى توسع الفرنسيين أولا ثم الانجليز ثانيا ثم الايطاليين أخيرا للسيطرة على هذه المنطقة من القطاع الحبشى الصومالى وليس أدل على استعداد الحكومة الخديوية فى مصر للتنازل عن الارض وتسليمها للمستعمرين من المراسلات التى تمت بين القنصل الفرنسى وعلى باشا رضا حول حوادث أوبوك التى اشترتها فرنسا ، والشروط البريطانية التى فرضتها وأدت الى انسحاب القوات المصرية من سواحل الصومال

---

(١) د . حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فى افريقية ص ١٣٢ - ١٣٤



خريطة رقم ٥ دول الطراز الاسلامية في الحبشة

عام ١٨٧٧م ثم تصفية الوجود المصرى نهائيا منذ الاحتلال البريطانى لمصر فى عام ١٨٨٢ م (١) .

وكان للوجود المصرى فى شرق افريقية اثره الواضح فى تقوية الوجود الاسلامى بها وحمايته من الضغط الاثيوبى الأمر الذى ساعد على أيجاد المدارس الاسلامية والمساجد فى كل من زيلع وتاجورة وبربرة وجيبوتى وغيرها ، وقد كان من أثر تدعيم الوجود الاسلامى هناك أن قامت ثورة كبيرة على يد أحد الزعماء الصوماليين هو محمد بن عبد الله حسن الذى بدأ يواجه الزحف الاستعمارى والاثيوبى منذ أواخر القرن حتى أخمدت حركته بالقوة عام ١٩٢١ كما سنشير الى ذلك عند استعراض حركات الاصلاح الاسلامية .

الاسلام فى قطاع ساحل المحيط الهندى

تعرض ساحل شرق أفريقية منذ فجر الاسلام لهجرات كثيرة من حضرموت واليمن وعمان وساحل الخليج الفارسى ، ولقد كانت صلة الساحل الشرقى الافريقية المطل على المحيط الهندى على صلة وثيقة بجنوب الجزيرة العربية والخليج الفارسى منذ قرون عديدة قبل الاسلام ساعد على قيامها الطريق البحرى اليسير الذى تساعد فيه الرياح العكسية السفن الشراعية على الاتجاه الى ساحل شرق افريقية فى فصل الشتاء والى ساحل الخليج وجنوب الجزيرة العربية فى فصل الصيف ، وقد تتبع التجار المسلمون منذ فجر الاسلام هذا الطريق البحرى واعقبتهم هجرات عربية عديدة .

ولقد ارتبطت الهجرات العربية بالاحداث السياسية فى جنوب الجزيرة العربية وساحل الخليج الفارسى وكانت الهجرات الاسلامية الرئيسية الثلاث الى ساحل شرق أفريقية هى :

---

(١) د . جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق افريقية ص ٦٦ — ٨٠ .

١ ـ هجرة سليمان وسعيد أثناء حكم الخليفة عبد الملك بن مروان، وكانا قد قاما بثورة فى عمان ولكن الخليفة أخمد الثورة مما أدى الى هجرة قادتها الى ساحل شرق أفريقية مع عدد من اتباعهما حيث أنشأوا مدينة تسمى باتا جنوب ممباسا الحالية ، وكان ذلك فى حوالى عام ٧٠٠م (٨١ هـ) .

٢ ـ هجرة شيرازية جاء بها الملك حسن الذى فر هاربا من طغيان طغرل بك السلجوقى الذى فتح شيراز سنة ١٠٥٥ ، وقد نزل الملك حسن وأخوته السبعة بمدينة كلوه ثم تفرقوا فى البلاد منشئين المدن الاسلامية العديدة ومنها مقديشو كما سبق أن ذكرنا وخضعت مدن الساحل ، ومنها باتا لمملكة كلوه التى بلغت ذروتها فى القرن الخامس عشر الميلادى .

٣ ـ هجرة عمانية ثانية سنة ١٢٠٣م (٦٠٠هـ) هاجر فيها سليمان ابن سليمان النبهانى صاحب عمان وتزوج ابنة حاكم باتا السواحيلية الأصل وورث العرش واسس الأسرة النبهانية فى باتا وظهرت عظمةالاسرة النبهانية فى عهد الملك عمرالأولالذى حكم من سنة ١٣٣٢ م (٧٣٤ هـ) الى سنة ١٣٥٨م (٧٥٩ هـ) وقد بسط سلطانها على عدد من مدن الساحل الشرقى حتى القرن الخامس عشر .

وما أن استطاعت الأسرة النبهانية أن تكون شبه وحدة اسلامية فى الشمال تحت قيادة مدينة باتا والاسرة الشيرازية أن تكون شبه وحدة اسلامية مماثلة تضم مدن الساحل الجنوبى تحت قيادة كلوه حتى بدأت الضربات تتوالى على المدن الاسلامية فى الساحل الشرقى لافريقية من جانب البرتغاليين الذين اخذوا يشنون حربا صليبية فى البحار الجنوبية للسيطرة على التجارة ولمنع المسلمين من الاتجار مع الشرق الأقصى وجزر الهند الشرقية .

ولقد كان لانشاء المدن الساحلية الاسلامية فى شرق أفريقيــة اثره الكبير على السكان فى شرق وجنوب أفريقية ، فقد دخل الكثير من أبناء قبائل شرق افريقيا فى الاسلام وساعد الاحتكاك بين العرب المسلمين والسكان الوطنيين على نشأة ثقافة اسلامية خاصــة فى شرق أفريقية تتمثل فى اللغة السواحيلية التى هى خليط من اللغات البانتوية واللغة العربية حيث تمثل اللغة العربية فيها أكثر من ٦٠٪ ستين فى المائة من الفاظها .

ونشأت فى المدن الاسلامية حضارات ما زالت آثارها تشهد بها قائمة حتى يومنا هذا مثال ذلك مسجد براوة الذى عثر فيه على نقش بالعربية على أحد جدرانه يرجع الى القرن التاسع الهجرى ، وما عثر عليه من مبان فى أطلال مدينة باتا مزينة بالنقوش العربية ، ومما يستحق الذكر أن ابن بطوطة قد وصل فى رحلاته الى كلوا بشرق افريقية ، وهو يصــفها بأنها مدينة عظيمة ســاحلية ، أكثر أهلها من الزنوج المستحكمو السواد ، ولهم شرطات فى وجوههم يأتيها بعض التجار من مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر منها ، ومدينــة كلوا من أحسن المدن واتقنها عمارة ، وكلهــا بالخشب والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد والغالب عليهم التدين والصلاح وهم شافعية المذهب .

وقد استمرت كلوه قائمة كمركز اسلامى ومركز تجارى حتى أخضعها فاسكو دى جاما ١٥٠٢ م واقام البرتغاليون بها قلعــة عام ١٥٠٥ م ، ولكن استمر النضال بين ســكانها المسلمين وبين البرتغاليين حتى عام ١٥١٢ م ، ثم فى أواخر القرن السابع عشر وقعت تحت سيطرة أئمة مسقط واصبحت جزءا من سلطنة عمان حتى انفصلت سلطنة زنجبار مستقلة عن حكم مسقط عام ١٨٥٦ أصبحت جزءا من هذه السلطنة الجديدة الى ان استولى عليهــا الالمان عام ١٨٨٥ عند بسط نفوذهم على تنجانيقا ، ثم انتقلت فى سنة ١٩١٩ الى الحماية البريطانية التى انتهت عام ١٩٦٣ باستقلال

زنجبار ، وأخيرا أطيح بالاسرة الحاكمة الاباضية التى كانت فيها وأصبحت جزءا من اتحاد تنزانيا الذى يضم تنجانيقا وزنجبار .

ومن مدن الساحل الشرقى لافريقية مدينة سفالة وهى من أهم مراكز التجارة العربية الاسلامية وأقدمها اذ أقبل عليها المهاجرون العرب منذ عام ٩١٥م (٣٠٣ هـ) ثم جاء الشيرازيون فى حوالى عام ١٠٢٠ (٤١١ هـ) وقد ازدهرت فى خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر حيث كانت بمثابة مركز الدفاع الأمامى لسلطنة كلوا .

وتعتبر سفالة هى اقصى المدن التى وصلها العرب فى البحار الجنوبية جاء ذكرها عند المسعودى والبيرونى والقزوينى وابن الوردى على أنها جزء من بلاد الزنج وعلى أنها من أغنى مناطق افريقية بالذهب ، وقد استولى عليها البرتغاليون ضمن ما استولوا عليه فى ساحل شرق أفريقية وهى ما زالت حتى اليوم جزءا من مستعمرة موزمبيق البرتغالية التى تكافح من أجل الاستقلال ، وما زال المسلمون الذين دخلوا الاسلام من أبناء هذه البلاد يعانون من الاضطهاد الصليبى الذى يفرضه البرتغاليون لارغامهم على ترك دينهم .

وان الآثار الكثيرة التى توجد فى كثير من مدن الساحل الأخرى مثل تمباتو وبمبا ومالنده وغيرها مما حطمه البرتغاليون بمدافعهم لتشهد بقيام الحضارة الاسلامية القوية فى تلك البلاد ، ووجود الشعب السواحيلى المسلم فى أنحاء شرق أفريقية ليؤكد أن الاسلام كان له دوره الفعال فى نقل بلاد الزنج الى مستوى حضارى رفيع .

ولقد كتب الكثير عن تاريخ مدن الاسلام فى بلاد الزنج فى كتب العرب ، وقد عثر على بعض كتابات للمؤرخين المحليين مثل كتاب « السلوه فى تاريخ كلوه » الذى يرجح أنه موجود فى البرتغال لأن المؤرخ البرتغالى دى بارو قد رجع اليه فى كتابه عن آسيا الذى

نشره عام ١٥٥٢ م فى لشبونة ، وقد وجدت نسخة مخطوطة منه عبارة عن ملخص لهذا الكتاب عند شيخ عربى فى زنجبار استنسخ منها برغش سلطان زنجبار نسخة أهداها للقنصل البريطانى وقد نشر هذا المختصر فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية فى لندن عـام ١٨٨٥ .

وهناك كتاب آخر سطره رجل يدعى شيبو فرح بن أحمـد الباقرى بعنوان « خبر لامو » أورد فيه تاريخ لامو وبعض المـدن الأخرى الخاضعة لنفوذها وقد نشرت ترجمته الى الانجليزية فى جامعة جوهانزبرج فى جنوب افريقية .

هذا فضلا عن كتب عديدة باللغة السواحيلية مسجلة بالحرف العربى عن تاريخ هذه البلاد ، ورســائل لا حصر لها بهـذه اللغة وبالعربية جمعها البريطانيون والألمان لمتـاحفهم ومراكز الوثائق فى بلادهم مما يقتضى منا مزيدا من العناية بالحصول عليها ودراستها واخراجها تسجيلا للحضارة والتاريخ الاسلامى فى تلك البلاد .

الفصل الرابع

بناء الاسلام فى القارة

تطور وضع الاسلام فى افريقية حتى القرن السادس عشر حيث كانت قد تتابعت الممالك الاسلامية ونشأت مراكز الدعوة والاشعاع الاسلامى فى كل الانحاء وكان الاسلام يسير حثيثا بوسائله السلمية تساعده العوامل المختلفة التى تجعل له قابلية عند الشعوب من ضرورات اجتماعية وثقافية وروحية بل واقتصادية وسياسية ايضا ، ولكن منذ القرن السادس عشر بدأ يمر بتطورات جديدة وعديدة تتشمل فيما يلى :

١ — تجمعات المذاهب الاسلامية الكبرى .

٢ — الطرق الصوفية .

٣ — قيام الحركات المهدوية والجهاد .

ولقد كان لهذه العوامل الثلاث أثرها فى تقوية الكيان والوجود الاسلامى فى أفريقية وطبعه بطابعه المعاصر .

تجمعات المذاهب الكبرى

ونقصد بها السنة والشيعة والخوارج وكلها تتمثل فى القارة الأفريقية غير أننا نجد اختلافا مكانيا فى توزيعها بين أجزاء القارة .

فالسنة تسود غرب أفريقية اذ أن جميع سكان غرب افريقية سنيون ينتمون الى المذهب المالكى ، ولكن ذلك لا ينفى وجود مؤثرات التقاليد الشيعية التى وصلت عن طريق المغرب منذ العهد الفاطمى ، كما أن سنية الناس هناك لا تتعارض مع انتمائهم للطرق

الصوفية المختلفة ، كما أنهم جميعا مالكيون أيضا بتأثيرات قديمة من المغرب ترجع الى الوقت الذى خضع فيه للفاطميين الشيعة .

اما فى شرق أفريقية فان السنة يمثلون فقط نسبا متفاوتة من السكان المسلمين ، وفى بعض الأقاليم يكونون اغلبية عظمى ، وفى أجزاء أخرى يوجدون بنسب متفاوتة كما هو الحال فى كل من كينيا وأوغندا وتنزانيا ، أما فى الصومال واثيوبيا فان الجميع سنيون ، غير أن السنة فى شرق افريقية بعامة ينتمون جميعا الى مذهب الامام الشافعى فهم شافعيون وذلك بتأثير صلتهم القوية بمصر .

والى جانب السنة توجد عناصر تنتمى الى مذاهب اسلامية كبرى فتتمثل الشيعة الامامية فى شرق افريقية فى المهاجرين الزيديين من اليمن وجنوب الجزيرة العربية وتتمثل الاباضية ايضا فى المهاجرين من مسقط وعمان وبعض المهاجرين من اليمن والأباضية هم أكبر طوائف الخوارج فى العالم الاسلامى المعاصر وينسبون الى عبد الله بن اباض المورى التميمى الذى خرج سنة ٦٥ هـ على اجماع المسلمين وكون تلك الطائفة أثناء الفتنة الكبرى فى عهد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد كانت أسرة سلاطين زنجبار المخلوعين تنتمى الى الاباضية ويوجد بعض الاباضية أيضا فى شرق السودان وهرر ولكنهم قليلون وليس لهم وزن عددى أو سياسى كبير ، كما يوجد بعضهم فى واحات الجزائر والصحراء الكبرى من بقايا العهد الذى كان نشاطهم ممتدا فى طرابلس وليبيا والشمال الأفريقى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة وهم هنا أيضا قليلون وليس لهم دور سياسى يذكرونسبتهم ضئيلة ليس لها تأثيرها الاجتماعى الواضح ، هذا ويوجد الاسماعيليون فى شرق افريقية ممثلين فى المهاجرين من شبه القارة الهندية وكذلك بعض الاحمدية كما سنرى بعد .

الطرق الصوفية

ويعتبر وجود الطرق الصوفية ظاهرة سائدة فى أنحاء القارة الافريقية بين العوام والمتعلمين على حد سواء ، ويكاد يكون الانتماء الى الطريق جزءا من تدين الرجل ، والتبعية الى شيخ أو مقدم من اهل الطريق تعد صفة من صفات اى افريقى مسلم سواء فى الغرب أو الشرق ، الىجانب صفته الرئيسية كمسلم .

وأول هذه الطرق الصوفية واقدمها هى القادرية التى اسسها عبد القادر الجيلانى وظهرت بأفريقية فى القرن الرابع عشر على يد أحد علماء « ولاته » الذى أخذ ينشر الطريق بين الفولانيين واتخذ تمبكتو مركزا له ولكن نشاط الطريقة القادرية لم يتسع الا على يد سيدى أحمد البكاى الكونتى من عرب موريتانيا فى أواخر القرن الخامس عشر ، وقد استمرت القادرية سائدة وحدها فى غرب افريقية حتى سنة ١٨٥٠ حينما بدأت الطريقة التيجانية نشاطها وانتشرت فى غرب افريقية ، غير أن مقدمى الطريقة القادرية استمروا فى نشاطهم جنبا الى جنب مع التيجانية ونجحوا فى ادخال الكثير من البامبارا والساركولا وسكان فوتوجالون بمالى وغينيا فى الاسلام ، وانتشرت الطريقة القادرية على يد أبناء تمبكتو الى الشرق ، وقام رجل من كابارا (الميناء النهرى لتمبكتو بالهجرة الى شمال نيجيرا حيث نشر الطريقة التيجانية بين الهاوسا من أهالى نيجيرا وقد اتخذ الشيخ محمد كابارا الكبير مدينة كانو كمركز لنشاطه فى شمال نيجيريا منذ بداية القرن الماضى واستمرت حتى وقتنا هذا أكبر مركز للقادرية فى القطاع الشرقى من غرب افريقية .

وانسلخت من القادريةطريقتان جديدتان هما المريديةواللياتية:

فالمريدية هى الطريقة التى انسلخت من القادرية سنة ١٨٨٦ على يد رجل يدعى الشيخ سيديا فى السنغال وقد ابتدع هذا

الشيخ الصوفى مبدأ جديدا هو : « اشتغل من أجلى وأنا أصلى بالنيابة عنك ، فان العمل صلاة ، والعمل فى الأرض مقدس لأن الأرض ملك لله » وواضح أن هذا الابتداع مقصود به مصلحة اقتصادية شخصية ورثها عن الشيخ سيديا خلفاؤه محمدو المصدقى الذى تولى مشيخة الطريق سنة ١٩٣٧ ثم الشيخ فضيال أمبكى الذى تولى المشيخة منذ سنة ١٩٤٥ حتى يومنا الحاضر ، وانتشار هذا الطريق قاصر على السنغال وغينيا ويوجد قليل من أتباعه فى غينيا ومالى أيضا .

وقد انسلخت الليانية ايضا فى أواخر القرن التاسع عشر حينما ظهر فى قرية « لبو » بالسنغال — والتى يشتغل جميع أهلهابصيد السمك فى المحيط الأطلسى — رجل يسمى ليمالاى أو الامام لاى مقدم القادرية الذى ادعى أن النبى ظهر له فى المنام والقى عليه ببعض التعليمات الدينية والقراءات والأوراد الخاصة لينقلها الى شعب اللبو وقد آمن به الشعب جميعه ، وبدأ تحت قيادته يعمل على نشر الاسلام بين الوولوف الذين لم يدخلوا الاسلام ، واستمر نشاطهم فى الدعوة الاسلامية حتى سنة١٩٠٩ حينما أوقفته السلطات الفرنسية بالقوة . وما تزال هذه الطريقة الصغيرة موجودة بالسنغال وغينيا بزعامة سيدنا مودى لاى (أو محمود لاى) نجل مؤسس الطريقة حتى وقتنا الحاضر .

والطريقة الصوفية الثانية فى افريقية الغربية هى الطريقة التيجانية التى اسسها احمد بن محمد التيجانى فى القرن الثامن عشر بعد أن تلقى تعليمه فى مكة المكرمة ثم تلقى الطريق على الشيخ الكردى فى العراق وزار مصر ثم استوطن فى المغرب وكان طريقه الأول هو الخلوتية ثم انسلخ منها ، وانتقلت الطريقة التيجانية الى افريقية الغربية وعبر الصحراء الى موريتانيا ثم الى بلاد غرب افريقية الأخرى ابتداء من سنة ١٨١٥ بعد وفاة سيدى احمد بن محمد التيجانى وكان ذلك على يد الشيخ محمد الحافظ الكبير

الذى انشأ الزوايا فى تمبكتو وسيجو والأدرار وفى جبال فوتا السنغالية ، وكذلك امتد الى الشرق فى برنو ووادای وتشاد ، وقامت هذه الزوايا بمهمتين رئيسيتين : **أولاهما** نشر الطريقة التيجانية بين المسلمين ، **وثانيهما** نشر الاسلام على الطريقة التيجانية بين القبائل التى لم تدخل الاسلام بعد .

وقد ظهر من التيجانية زعماء أقوياء استطاعوا الى جانب نشر الدين العمل على ردع البدع الموروثة من عهد القبلية واستطاعوا الى جانب ذلك تكوين ممالك قوية مثال ذلك اتحاد ممالك الهاوسا على يد عثمان دن فديو الذى خلفه بللو أحمدو وقد سبقه الحاج عمر الفوتى السنغالىالذى استطاع ان يكون فى أراضى مالى وغينيا مملكة كبيرة وقفت فى وجه توغل الجيوش الفرنسية زمنا ليس بالقصير حتى غلبتها الجيوش الفرنسية بالأسلحة الحديثة .

وقد انسلخت من التيجانية كذلك طريقتان اخريان هما المالكية فى السنغال وغينيا والحمالية فى مالى وفولتا العليا .

فالمالكية هى التى أسسها الحاج مالك سى المتوفى سنة ١٩٢٩ وقد ادخل على التيجانية بعض البدع المشابهة لبدع المريدية كاسقاط بعض الفرائض نظير تقديم العمل التطوعى للشيخ الكبير ، وكالحج الى قبره سبع مرات مما يغنى عن الحج الى بيت الله الحرام ويشفع للانسان ، وقد انتشرت هذه الطريقة فى السنغال وغينيا ، ولئن كانت منفصلة فى شكلها الا أنها تيجانية فى جوهرها واصلها ولزعمائها صلة بزعماء التيجانية فى البلاد الأخرى ، ويعتبر ابراهيم نياس المقيم فى كاولاك بالسنغال زعيم المالكية هو أكبر الزعماء التيجانيينفى الوقت الحاضر .

أما الحمالية فانها تعتبر أشهر وأقوى السوالخ من التيجانية اذ كان لها دورها الهام فى الحياة الاسلامية فى غرب أفريقية ، وقد

اسسها رجل تيجانى يسمى الشيخ احمد حماه الله نسبت الطريقة اليه ، وبدأت فى أول أمرها حركة دينية صرفة ثم تحولت الى حركة سياسية تطالب بطرد المستعمرين الفرنسيين .

وأصل انسلاخ الحمالية عن التيجانية خلاف بين مؤسسها الشيخ حماه الله الذى كان خليفة التيجانية فى مدينة « نيونو » بشمال مالى (السودان الفرنسى فى ذلك الوقت) وبين زعماء التيجانية الآخرين حول عدد مرات قراءة الصلوات على النبى (صلعم) فى الأوراد اليومية المقررة اذ أنه أخذ برواية بعض تيجانية الصحراء من أن الشيخ احمد التيجانى الكبير كان يقرؤها فى الوصيفة أحد عشر مرة وليس اثنى عشر مرة كما يفعل سائر مقدمى وخلفاء التيجانية ، ونتيجة لاشتداد الجدل بين أنصار الشيخ أحمد حماه الله وباقى التيجانية تدخلت السلطات الفرنسيةمتذرعة بمنع تحول الجدل الى صدام مسلح ، وقد أدى هذا التدخل الى غضب الشيخ أحمد حماه الله فأعلن الجهاد ضد الكفار وشبت الثورة فى شمال مالى واستمرت من سنة ١٩٠٦ الى أن استطاع الفرنسيون بالخديعة القبض على الشيخ حماه الله ونفى الى فرنسا سنة ١٩١٦ فخلفه رجل آخر يدعى تيرنو بوباكو كان قد هاجر الى مدينة باندياجارا فى الجنوب لاجئا الى منطقة جبلية وعرة حيث أخذ يدعو الى الاسلام بين قبائل الدوجون غير المسلمة فى ذلك المكان . ودخل فى منافسة شديدة مع المبشرين البروتستنت والكاثوليك كانت له فيها الغلبة حيث دخل على يديه فى الاسلام معظم أبناء هذه القبيلة ومعظم الفولانى فى تلك المنطقة ، وقد توفى الحاج تيرنوبوباكر فى السجن سنة ١٩٥٠ بعد محاكمته التى أدين فيها بالثورة على الحكم الفرنسى وتحريض القبائل على الثورة ، وما تزال الحمالية حتى الآن تقوم بنشاطها فى التعليم الاسلامىالذى تمارسه فى المدارس القرآنية فى جنوب مالى وشمال أعالى الفلتا .

ومن الطرق الدينية ذات الأثر فى بعض أجزاء أفريقية الطريقة السنوسية وهى الحركة الدينية الاصلاحية التى قام بها محمد بن على السنوسى فى ليبيا ، واستطاعت ان تنفذ عبر الصحراء لنشر تعاليم السنوسى الاصلاحية فى كتاتيب ومدارس كانت بمثابة معسكرات لاعداد المجاهدين ضد الاستعمار وانتشر اتباعها فى تشاد ووادای والنيجر ، وقد استطاع المستعمرون الفرنسيون أن يفصلوا بين الحركة السنوسية فى ليبيا وفزان وامتدادها الطبيعى فى أفريقية الاستوائية الفرنسية والنيجر ونجحوا فى ذلك الى حد بعيد باغلاق الحدود بين ليبيا من جهة والنيجر وتشاد من جهة أخرى .

اما فى شرق افريقية فان الطرق الصوفية تختلف عنها فى غرب افريقية ولئن كانت القادرية لها وجود فى شرق افريقية ، ولئن وجدت العديد من الطرق الصوفية الا ان تمثلها وأثرها فى حياة الناس ليس بالصورة التى لها فى غرب افريقية وذلك اذا استثنينا أجزاء السودان الشرقية حيث تسود الطريقة الميرغنية وأهم الطرق الموجودة فى شرق افريقية هى : « السمانية والشاذلية والميرغنية » .

فالسمانية هى الفرع الشرقى للخلوتية فى أفريقية ، أسسها فى القرن الثامن عشر الشيخ محمد بن عبد الكريم السمانى فى الحجاز ثم نقلها الى السودان فى القرن التاسع عشر الشيخ أحمد الطيب ابن البشير تلميذ الشيخ السمانى الكبير ، وهى نفس الطريقة التى تلقاها محمد أحمد المهدى قبل أن يقوم بثورته على الحكم البريطانى ــ وقد انسلخت منها حديثا طريقة سميت بالهندية نسبة الى مؤسسها الشريف يوسف الهندى فى الأبيض بغرب السودان .

والشاذلية هى التى أسسها الحسن الشاذلى المغربى الأصل فى مصر فى القرن الثانى عشر الهجرى وانتقلت الى السودان والصومال على يد بعض اليمنيين والحضارمة المهاجرين الذين كانوا

قد اخذوا هـذه الطريق ، وانسلخت منهـا فيما بعد الادريسية والناصرية والصالحية وغيرها .

وتعتبر الميرغنية فرعا من الادريسية المنسلخة من الخلوتية وقد اسسها السيد \ محمد عثمان الميرغنى بعد أن تلقى تعاليمه على شيخ الادريسية فى دنقلة واتصل به وسل من قبل مشايخ القادرية وانتشرت الميرغنية فى جميع أنحاء السودان ، غير أنها أكثر انتشارا فى الشرق منه .

وللطرق الصوفية فضلا عن أثرها فى حياة السكان فى الصومال والسودان وسائر جهات غرب افريقية نجد انهـا تحفظ مظاهر الاسلام فى مجالس العلم والتفسير المقامة فى جميع الأنحاء وما تقوم به من احياء المواسم والاعياد والمناسبات الدينية بالاضـافة الى نشاطها اليومى والاسبوعى الذى تقوم فيه بتجميع الاتباع لقراءة الأوراد والوصيفة المقررة على المريدين فهى تقوم بمهمـة ثقافية وتعليمية وسياسية أحيانا كما رأينا .

الحركات المهدوية والجهاد

ولقد ارتبط بالطرق الدينية حركات مهدوية كثيرة اتخـذت شكلا اصلاحيا سياسيا ولئن كانت الحركة المهدوية فى السودان أقوى هذه الحركات ورائدتها الا أنه قد ظهرت قبلها وبعدها حركات مهدوية أخرى فى شرق افريقية وغربها وقفت فى وجه الاستعمار البريطانى والفرنسى وكذلك الألمانى وقفات شديدة .

وتنبنى هذه الحركات المهدوية العديدة التى ظهرت فى جميع انحاء القارة الافريقية على أساس فكرة وجود امام حي يعيش فى مخفاه ويظهر ليدعو الناس لحرب الكفار ، وهى فكرة انتقلت الى افريقية عن الشيعة من المغرب فى العهد الفاطمى ، وهى التى عبر عنها الشاعر بقوله :

الا أن الأئمة من قريش | ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه | هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر | وسبط غيبته كربلاء
وسبط لايذوق الموت حتى | يقود الجيش يقدمه اللواء
تغيب لايرى فيهم زمانا | برضوى عنده عسل وماء

وهذا الامام المختفى فى رضوى هو الذى يظهر على رأس كل زمان ليصلح الدين .

وقد راقت فكرة الامام المختفى الذى سيظهر ليقود الناس ضد الكفار لبعض الوطنيين فاعتنقوها واتخذوها وسيلة للدعوة ضد المستعمر الكافر الى جانب مهمتها الأصلية التى تهدف الى الاصلاح الاسلامى ومحاربة البدع والدعوة الى نشر الاسلام والجهاد فى سبيل الله .

ولقد تأثرت بعض هذه الحركات المهدوية والجهاد بالحركة السلفية التى قادها جمال الدين الأفغانى ومن بعده الشيخ محمد عبده فى مصر ، كما استمد بعضها فكرة الثورة الدينية على آثار الجاهلية فى حياة الناس واحياء السنة النبوية الشريفة من الحركة الوهابية فى الحجاز ، وجاءت هذه التأثيرات نتيجة للاحتكاك المباشر مع مصر حيث كان الأزهر مركزا لتجمع المتعلمين من جميع انحاء العالم والقارة الافريقية على وجه الخصوص أو ببلاد الحجاز من خلال ممارسة فريضة الحج .

وقامت حركات الجهاد فى كل من شرق وغرب أفريقية تنادى بالاصلاح الدينى وتعمل على اخماد البدع الجاهلية ، وهى فى تحركها الدينى تحولت الى حركات سياسية من أجل تكوين ممالك اسلامية

أو مواجهة الصليبية والجاهلية والوثنية أو مقاومة التوغل الاستعماري .

الحركات المهدوية فى شرق افريقية :

عرفت فى شرق افريقية حركتان مهدويتان كبريان : احداهما الحركة المهدية فى السودان والتى بدأت بمقاومة السلطة البريطانية التى مدت نفوذها الى السودان بعد الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ وانتهت بفرض الحكم الثنائى على السودان ، وقد كانت هذه الحركة دينية سياسية تهدف الى الاصلاح الدينى والجهاد فى سبيل الله ضد المستعمرين .

والحركة الأخرى فى شرق افريقية على مثالها، وقد قامت فى الصومال الشمالى على يد رجل صوفى ينتمى الى الطريقة الناصرية هو محمد بن عبد الله حسن الذى عرف باسم الملا (أو مولاى) وسماه البريطانيون الملا المجنون ، قام الملا محمد بن عبد الله حسن بجمع الصوماليين من حوله لاعادة الوحدة الى مدن الاسلام فى جنوب الحبشة بعد أن ارغمت القوى الاستعمارية مصر على أن تتخلى عنها ، وقد بلغت الحركة أشدها فى محاربة الأحباش والبريطانيين الذين بدأوا يبسطون نفوذهم على شمال الصومال وهرر وأرتين بعد زوال الوجود المصرى فى هذه البلاد متضامنين مع الأحباش الذين كان يقودهم منليك الثانى فى حرب ابادة ضد المسلمين ، وظل محمد بن عبد الله حسن يحارب بجيوشه منذ اندلاع الثورة عام ١٨٩٩ حتى اخمدت تماما فى عام ١٩٢٠ م وهى السنة التى استقر فيها الوضع وتم تخطيط الحدود بين الصومال البريطانى (الشمالى) وجنوب الحبشة وتوزيع مناطق النفوذ بين القوى الاستعمارية .

ولم يسجل لنا التاريخ الحديث والمعاصر خلاف هاتين الحركتين وان كان الاصلاح الدينى فى شرق افريقية قد استمر دون انقطاع

فى شكل جمعيات تعليمية وثقافية انتهت فى الصومال بتكوين اللجنة الوطنية للتعليم التى تهدف الى احياء التعليم العربى والاسلامى وبدأت نشاطها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية الى أن ضمت مدارسها للحكومة الصومالية أخيرا .

اما فى غرب أفريقية فقد اختلف الوضع حيث قامت فيها نوعان من الحركات الاصلاحية الأولى :

الأولى : حركات قام بها زعماء الفولانى واتصفت بشمولها واتصالها ببعضها فى غرب افريقية .

والثانية : حركات قام بها زعماء صوفيون متفرقون وكانأثرها لا يخرج عن نطاق محلى ضيق .

وتعتبر الحركات الأربعة التى قام بها زعماء فولانيون فى غرب افريقية من اقوى حركات الاصلاح الدينى والحركات السياسية الاسلامية فى غرب افريقية خلال القرن التاسع عشر وكان لها أثرها الكبير فى بناء الكيان الاسلامى فى تلك البلاد ، وهذه الحركات الفولانية الأربعة هى :

١ ـ حركة عثمان دن فوديو فى نيجيريا .

٢ ـ حركة سيكو احمدو الأحمد فى أعالى النيجر (مالى) .

٣ ـ حركة الحاج عمر الفوتى فى مالى وغينيا .

٤ ـ حركة موديبو أداما فى شمال الكمرون وشرق نيجيريا .

واتخذت هذه الحركات جميعا اسم « الجهاد » .

وقبل أن نتناول هذه الحركات الاصلاحية التى قام بها الفولانى لابد لنا من التعرف على هذه الجماعة الكبيرة التى كان لها أثرها

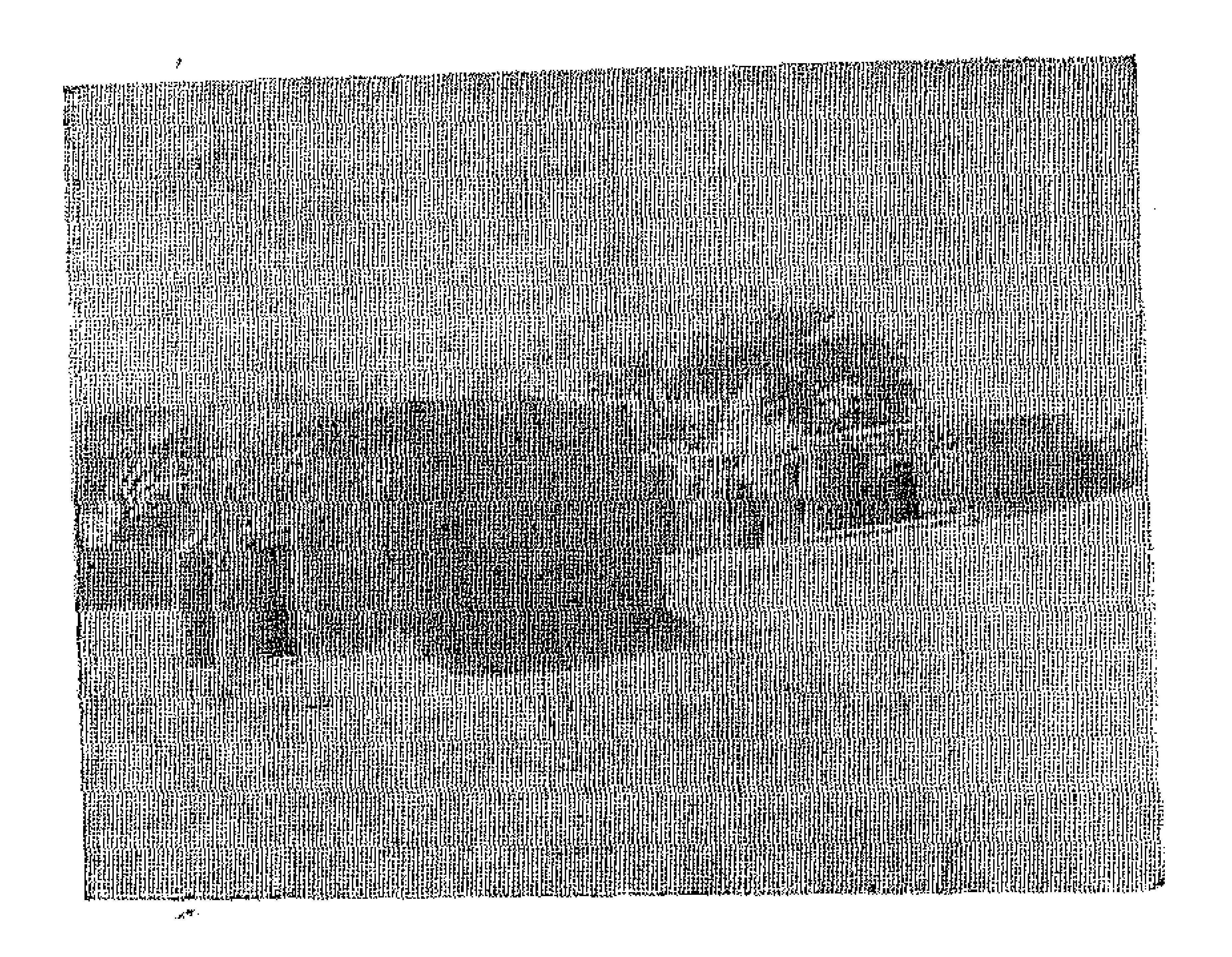
على الإسلام فى غرب أفريقيـــة مدى قرون عديدة وما زالت حتى وقتنا هذا تمثل وزنا بشريا وسياسيا خاصا ، فجماعة الفولانى هى جماعة شبه حاميــة وفدت فى أول أمرها من الشرق حسب الرواية التقليدية ، واستقرت فى جبال فوتاتورو فى أعالى النيجر ، وهم بقارة أو رعاة بقر أصلا واستقر البعض منهم فى المدن حيث اشتغلوا بالتجارة .

وبعد أن اتخذوا وطنهم الثانى فى أعالى النيجر فى اقصى غرب افريقية بدأت عشائرهم تعود فتتجه شرقا مكونة الجماعات الفولانية المتعددة التى استقرت فى انحاء مالى وغينيا وواصل بعضها هجراته نحو الشرق حيث استقرت جماعات أخرى منهم فى النيجر ونيجيريا والكمرون ، وقد عرفوا قديما باسم التكرور ، وان كان التكرور أو التوكولور فى الوقت الحاضر قد أصبحوا يمثلون فقط جماعة من جماعات الفولانى تسكن جبــال فوتاجالون وفوتاتورو فى منطقــة الحدود بين مالى وغينيا .

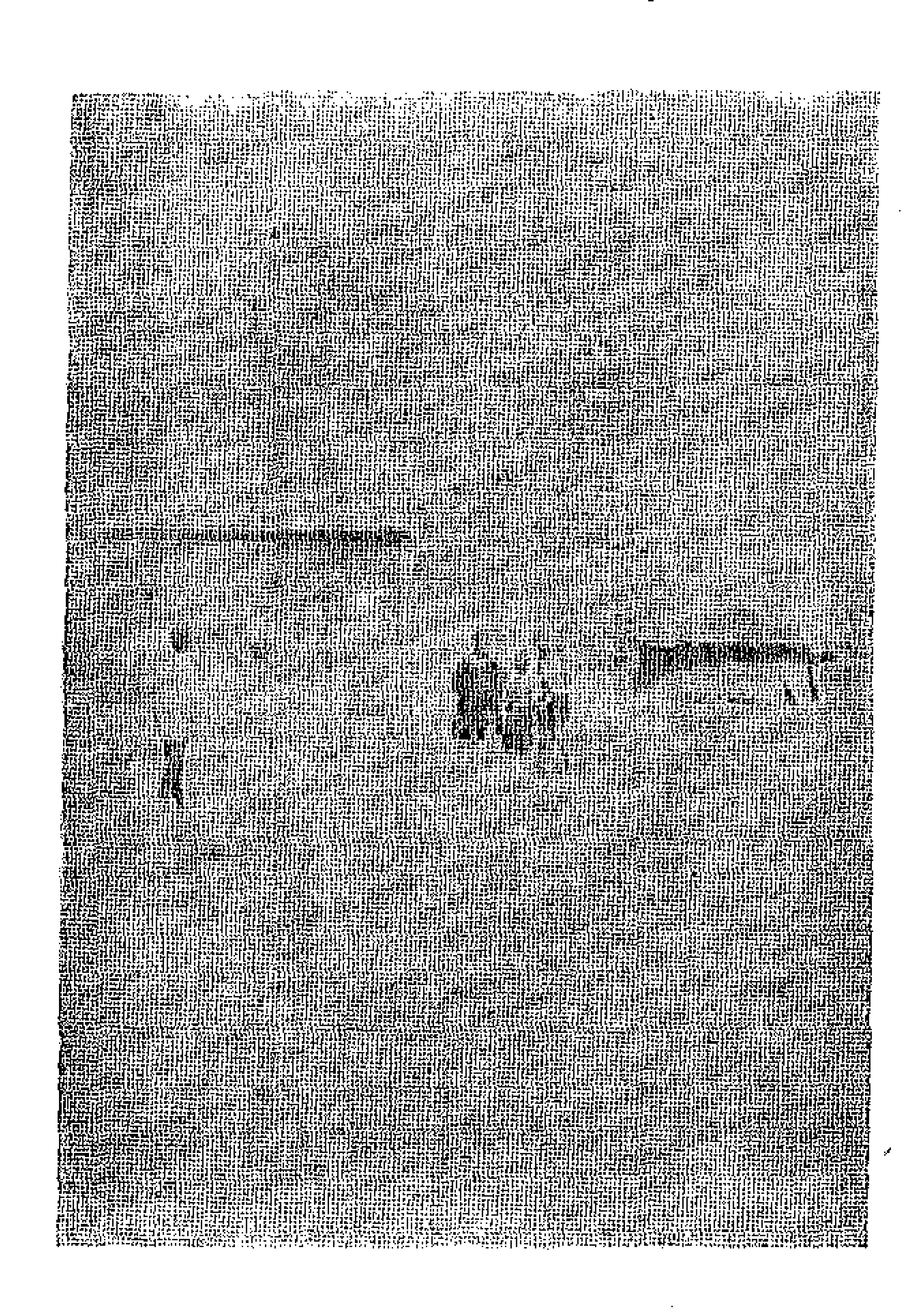
وكان الفولانى من أوائل الجماعات الأفريقيــة التى اعتنقت الاسلام ، والتى تركز اسلامها بحيث ظهر من بينهم علماء وفقهاء ودعاة ، واصبح الفولانى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هم حملة الاسلام الى من لم يعتنقــه من الجماعات المنعــزلة ، وقادة للاصلاح الدينى فى وسط الجماعات التى اصبح اسلامها مشـــوبا بشىء من الجاهلية الأولى .

عثمان دن فديو فى نيجيريا :

عرفنا منذ استعراضنا لامارات الهاوســا أنها كانت فى خلال القرن الثامن عشر تتصارع على النفوذ وتتبادل الغزوات ، وكان يعيش فى وسط بلاد الهاوسا مجموعتان رئيســيتان من الفولانى احداهمــا فى شرق برنن كبى والأخرى متجمعــة فى برنن كونى فى

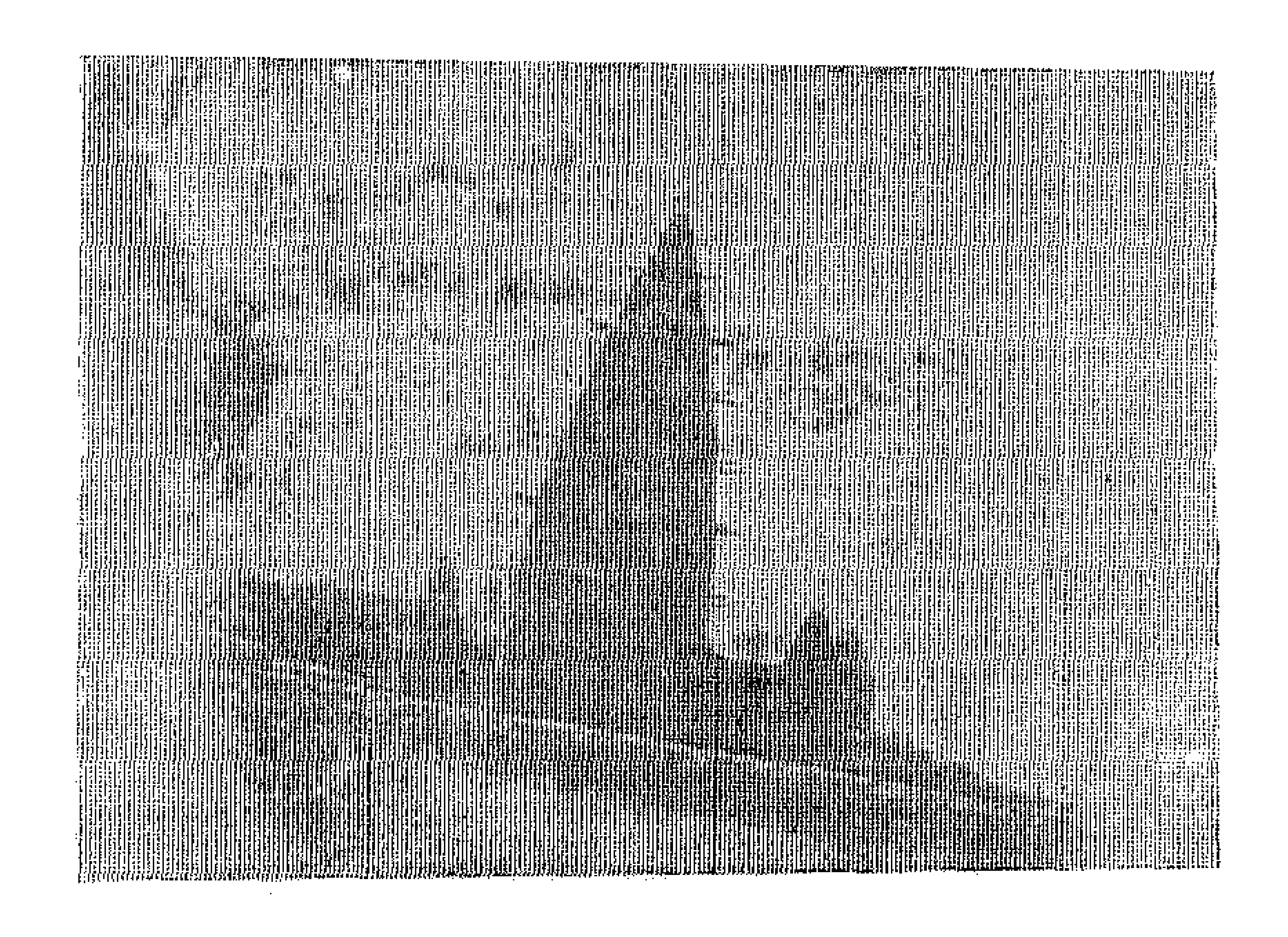


خلوات صوفية فى تشاد



مسجد سيجو بمالى (مبنى حديث ومئذنة قديمة)

المئذنة القديمة والجديدة
مسـجد موينى



نمط مسجد القرية فى شمال ساحل العاج

شمال غرب نيجيريا ، وعاشت وسطهما جماعات فولانية صغيرة مثل التورونكارا أو بنى ترونكه والسلاباوا أو بنى سلام ، ويذكر بنى ترونكه فى اسطورة أصلهم التقليدية أن لهم نسبا عربيا ، ومنهم عثمان بن فودى هذا الذى لقب بلقب شيخو ، وقد عرفت الترونكاوا بتمسكها بالاسلام وظهور الأئمة والعلماء والفقهاء والدعاة من بينهم ، وكان عثمان بن فودى (أودن فوديو) أشهرهم .

تلقى شيخو عثمان دن فديو علوم الدين واللغة العربية عن ابيه واعمامه وبدأ منذ عام ١٧٧٤م أى فى العشرين من عمره يعمل كداعية فى مدينة « دجل » ، ثم انتقل الى زمفارا واتجه الى جوبير حيث قابل سلطانها واخذ يشرح له أصول الاسلام التى نسيتها أوساط الشعب وعادت الى جاهليتها القديمة . وقد عمل هذا السلطان فى أول الأمر على اصلاح أمور الدين فى بلاده مستعينا بعثمان دن فوديو ، ولكن لما شعر بمنافسة شيخو عثمان له فى شعبيته تآمر على قتله ولكن شيخو استطاع أن ينجو بحياته فارا الى منطقة أخرى .

وفى عام ١٧٩٥ م دعا اصحابه واتباعه الى حمل السلاح لاداء فريضة الجهاد فى سبيل الله ضد من لا يقبلون الاصلاح الدينى من امراء وسلاطين الهاوسا ورؤساء الجماعات الأخرى الصغيرة ، وقد حاربهم البعض ووالاهم البعض الآخر حتى استطاع أن يكون ملكا كبيرا يضم شمال ووسط نيجيريا وعلى كل مدينة أو امارة حامل راية من رايات الجهاد مع الشيخو ليعيد الاسلام الى سيرته الأولى وليزيل آثار الجاهلية التى شابته ، واتخذ من سوكوتو حاضرة له وساعده فى جهاده كل من ابنه محمد بللو وشقيقه عبد الله اللذين اقتسما الملك بعد وفاته سنة ١٨١٧ م .

ولعل افضل ما توضح به أحوال المسلمين فى بلاد الهاوسا والفولانى بخاصة وبلاد السودان بعامة هو ما جاء فى كتاب انفاق

الميسور فى تاريخ بلاد التكرور الذى صـنفه محمد بللو بن عثمان دن فديو (المتوفى سنة ١٨٣٧ م) وما اتبعه من تحـديد لأهداف والده من حركة الجهاد حيث يقول :

« وقد وجد فى هذه البلاد من انواع الكفر والفسق والعصيان أمورا فظيعة » .

« وأحوالا شنيعة طبقت هذه البلاد وملأتها حتى لا يكاد يوجد فى هذه البلاد من صح ايمانه وتعبد الا النـادر القليل ولا يوجد فى غالبهم من يعرف التوحيـد ويحسن الوضوء والصـلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات ومنهم كفار يعبدون الأشجار والأحجار والجن ويصرحون على انفسـهم بالكفر ولا يصلون ولا يصـومون ولا يزكون ويسبون الله ويقولون فى حقه مالا يليق بجنـابه الأعلى وهؤلاء غالب عامة السودانيين الذين يقال لهم ماغذاوا (١) وبعض عتاة الفولانيين والتـوارك ومنهم قوم يقرون بالكلمـة ويصـلون ويصـومون ويزكون من غير اسـتكمال الشروط بل يأتون فى ذلك كله بالرسم والعلامة مع أنهم يخلطون هذه الأعمال بأعمال الكفر الذى ورثوه من آبائهم وأجدادهم وبعضهم من قبل نفسه وعلى هؤلاء يحمل قول الشيخ جبريل بن عمر فى قصيدته (٢) :

وبعد فاعلم أن ذا تبصرة	للناس فى السودان بل تذكرة
فلاترى منهـم سـوى مـن يدعى اسلامه بفمـه الموسـع	
مستترا بالصوم والصلاة	عن قدحه بأقبح الأعنات
فهـو حقـا كافر صريح	لأنه محـرم مبيـح

---

(١) أوماجوساوا ومعناها شعب المجوس بلغة الهاوسا .

(٢) كانت العربية هى اللغة الرسمية ولغة الثقافة والدين فى الامارات فى ذلك الوقت .

فى الحوض دائم ومستمر فى	عقيدة خالفها الجمع الوفى
عمى عن الحديث والكتاب	وماله قال ذوو الألباب
راض بحكم الجاهلية التى	ازالها الله لوضع الشرعة
خير افكار صـغار العلم	فحكموا اسلامهم بالوهم
ما بينهم وبين أهل الشرق	تفرقة لاحت لأهل الحق
وذاك يستبين بالظواهر	يدركه فيهم ذووالبصائر
يدرك بالخبرة والتجربة	فعـل تظهـر للأبصرة
مالم يكن يفعله الا لـذا	كفرانه بالاجمـاع يحتذا
فمـن أتاه كافر مـرتد	كذاك كفرانا بواحد أحد

وغالب ملوك هذه البلاد وجنودهم واطبائهم وعلمائهم (١) من هذا القبيل ومنهم قوم يقرون بالتوحيد ويصلون ويصومون من غير استكمال شروط كما مر انهم مقيمون على عوائد ردية وبدع شيطانية ومنهمكون فى المعاصى الجاهلية متأنسين بها جارين فيها مجرى المبـاحات حتى كانهم لم يدوروا فيها نهيا وهى خصال كثيرة اقاموا عليها وهؤلاء أكثر عامة الفلانيين وبعض مسلمى السودانيين اذ قد مر ان غالبهم كفار بالاصالة وبعضهم بالتخليط ومنهم قوم مؤمنون عارفون بالتوحيد كما ينبغى محسنون بالوضوء والغسـل والصلاة والصيام والزكاة عاملين بذلك كما ينبغى وهؤلاء النـادر القليل كما مر ولما قام هذا الشيخ يدعو الى الله وينصح العباد فى دين الله ويهدم العوائد الرديئة ويخمد البدع الشيطانية ويحيى السنة المحمـدية ويعلم الناس فروض الاعيـان ويدلهم على الله

(١) كما فى النص المخطوط .

ويرشدهم الى طاعته ويكشف لهم ظلم الجهالات ويزيل لهم الاشكالات وقد وجد هذه الطوائف المذكورة على هذه الحالات تسارع اليه الموفقون وصمد اليه السعداء المهتدون فجعل الناس يدخلون فى دين الله أفواجا وترادفت اليه الوفود أفواجا أفواجا وهو يقرر لهم الطريق ويبين لهم وفى ذلك يقول الأستاذ أخو عثمان (١) :

عثمان من قد جاءنا فى ظلمه — فأزاح عنا كل أسود دجج

فانصات خلق حين صات لصوته — وعلا له حيث فريق الأبرج

ودعى الى دين الاله ولم يخف — فى ذاك لومة لائم أو فجفج

بشرى لأمة احمد ببلادنا — السودان فى هذا الزمان المبهج

كم سنة أحييتها وضلالة — أخمدتها جمرا ذكى بتأجج

وطلعت فى أرض عوائدها عدت — وتخالفت سنن النبى الأبهج

استعظمتها أهلها فاستأسدت — وصدت دوين الدين باب الولج

فاستنسر بقشانها وتنمرت — جرذانها ترمى بنصل سلمج

من أراد دين الله يمحو عزها — فقمعته قمع القوى الأعوج

فقصمتها بالبيض من ايباته — والسنة السنن النبى الأدعج

---

(١) يقصد الكاتب عمه الامير عبد الله شقيق عثمان دن فوديو .

صلى الاله عليه ما هز الصـبا
عرنات فض فىالرياض خبريج
ولكل فرعون طغى موسى سطا
وقضـــية عاصت على تلفـج
فابيض وجه الدين بعد محافة
وأسـود وجه الكفر بعـد تبلج
والـدين فى عز ونهـج منهـج
والكفـر فى ذل ونهـج منهـج
والسـنة الغراء صـبح ينجلى
والبدعة السـوداء ليل يدجى
طمعت معالمهـا واخلق ثوبهـا
والـدين فى درع بميس مـدلج
وتفجـرت للـدين من بركاته
عين الحيـاء تذل ماء الحشرج
فجرى المزايب للمشارب افهمت
ماء يقول صـفاؤه هل من يج
حتى تبـرج مثـل بدر طـالع
بليـال صحو أو صـباح مبلج

(انتهى النص)

وقدكان الشيخ عثمان دن فوديو قادريا فى طريقته الصوفية مما خلق صلات قوية بينه وبين رجال الطريقـة القادرية فى غرب افريقية وبخاصة فى أعالى النيجر حيث تولدت من حركته حركة جهاد سيكو أحمدو .

ومما يستحق الذكر أن شيخو عثمان قد خلف الكثير من الكتب والرسائل التى تضمنت الكثير من التعاليم الدينية الموجهة لأهالى بلاد السودان وغرب افريقية وكان من أوائل كتابات الشيخ عثمان

دن فوديو كتاب « نصائح الأمة المحمدية » التى سبق بداية الجهاد وهو الكتاب الذى ضمنه مظاهر الانحراف عن الدين التى انتشرت فى أنحاء البلاد ، ومن مؤلفاته الهـامة « كتاب الفرق » ، وكتاب « بيان وجوب الهجرة » اللذين ضمنهما أهداف الجهاد وضرورته ، كما أن من اشهر كتبه كتاب « احياء السنة واخماد البدعة » الذى تضمن تعاليمه لازالة البدع والمبادىء الأساسية للاصلاح الدينى فى البلاد وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات فى نيجيريا ومصر والمغرب ، فضلا عن عشرات الكتب الأخرى والعديد من الرسـائل التى عثر على مخطوطاتها واصبحت مع اهتمامنا بالدراسات الاسـلامية فى افريقيـة تحتاج الى عناية لنشرها للتعـرف على هـذه الحركة الاصلاحية الكبرى التى قادها الشيخ وحمل لواءها من بعده أخوه وابنه حيث لقيا طلائع الاستعمار البريطانى فى نيجيريا واخـذوا يواجهونه هم واتباعهم حتى استطاع الاستعمار ان يبسط نفوذه على البلاد بالقوة .

جهاد سيكو احمدو :

كان جهاد سيكو احمدو فى أول أمره امتدادا لحركة جهاد عثمان دن فديو حيث حمل احدى رايات الشيخ ، ولكنه استقل بحركته بعد أن دعم مركزه ووسع نطاق نفوذه .

تلقى سيكو احمدو الأحمد (الشيخ أحمد الأحمد) تعليمـه الدينى التقليدى على بعض شيوخ الفولانى من جماعة الديااللو (ضياء الله) والسانجرى الذين عرفوا فى أعالى النيجر بعلمهم وصلاحهم ، وقد زار عثمان دن فوديو فى عام ١٨٠٥م حيث شاهد أعلى مراحل الجهاد وعاد الى بلاده حاملا راية من رايات عثمان دن فديو وبدأ يدعو الى الاصلاح الدينى فى مدينة سيبيرا حيث كون مجموعة من الأتباع الذين أعدوا للجهاد ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ، واتجهوا الى ماسينا حيث أرسل سيكو أحمـدو اثنين من أخوته

على راس جيش اليها لاخضاع ملكها الذى بدأ يستعين بالبامبارا المرتدين ضده ، وعادوا منتصرين حاملين الرايات ، وقد أنشأ سيكو احمدو بعد أن سيطر على أجزاء كبيرة من أعـالى النيجر حاضرة الملكه فى مدينة (حمد الله) ذات الأسوار والقلاع التى تضم فى داخلها المساجد والمدارس وذلك فى عام ١٨١٩ م ولقب نفسه امير المؤمنين ، واستمر سيكو احمدو يوسع نفوذه وينشر الاسلام ويجمع الأتباع وحملة الرايات فى جميع الجهات حتى بلغ امتداد مملكته من تمبكتو فى الشمال الى جنى فى الجنوب وشملت مناطق شاسعة فى الشرق والغرب من ذلك الامتداد وتوفى عام ١٨٤٤ م وخلفه ابنه احمـدو سيكو حتى عام ١٨٥٢ م ثم ابنه أحمدو الثالث الذى استطاع أن يتفق مع البامبارا المسلمين وعرب الكونتا فى الشمال والشرق من مملكته الى ان سقط ملك حمد الله فى عام ١٨٦٢ م نتيجة لقيام الحاج عمر الفوتى بتكوين مملكته التيجانية .

حركة الحاج عمر الفوتى :

لئن كانت حركتى الجهاد التى قام بها كل من عثمان دن فديو فى نيجيريا وسيكو احمدو فى اعالى النيجر تنتمى فى طرف منهاالى الطريقة القادرية فان حركة الحاج عمر فى مالى قد كانت ذات طابع تيجانى ، فقد تلقى الحاج عمر بن سعيد تال (أو التل) ــ الذى عرف باسم الحاج عمر الفوتى ــ الطريقة التيجانية على يد سيدى محمد غالى خليفة أحمد التيجانى الكبير الذى توفى سنة ١٨١٥م وقد إتخذه سيدى محمد غالي خليفة له فى أواخر عشرينات القرن التاسع عشر ، وقد مر فى عودته من الحج بمدينة برنو ثم سوكوتو حيث اتصل بمحمد بللو شقيق شيخو عثمان دن فديو وتزوج احدى بناته وواصل طريق عودته الى وطنه الأصـلى فى فوتا جالون حيث وصلها عام ١٨٢٩م وأخذ يعد نفسه ويعد إتباعه للجهاد ، وفى عام ١٨٤٨م هاجر من فوتا جالون الى مدينة دانجويزاى هو والمهاجرون

معه حيث انضم اليهم الأنصار فى هذه المدينة وبدأ جهـاده لنشر الاسلام على الطريقة التيجانية ، والى جانب نشر الطريق كان يعمل على دعوة غير المسلمين الى الاسلام ، وقد استمرت دعوته فى عهد خلفائه وأولهم التيجانى الحاج عمر الذى تولى القيادة بعد وفاته فى عام ١٨٦٤ م وقد استطاع أن يدخل الكثير من الدوجون الوثنيين فى الاسلام ليستعين بهم فى محاربة منافسيه من القادرية وبخاصة عرب الكونتا فى شمال مالى .

حركة موديبو اداما فى الكاميرون :

وكانت آخر حركات الاصلاح الاسلامية التى قام بها الفولانى حيث استمرت حتى عام ١٩١٠ وهى من أقوى الحـركات التى واجهت الاستعمار فى غرب افريقية ، قادها لاميـدو المهدى موديبو عبد الله آداما (١) حيث قام بمعاونة قاضيه ورجل الفقه فى بلاده المسمى « آية الله » الى دعوة المسلمين الى اصلاح اسلامهم والجهاد معه ضد الغزاة الكفار ، كما دعا القبائل الصغيرة المرابطة فى الجبال الى الاسلام ، وكان الألمان يزحفون شـمالا للسيطرة على بـلاد الكمرون ، وقد ظل لاميدو موديبو آداما يكافح التغلغل الالمانى حتى عام ١٩١٠ م حيث قتلته الجيوش الالمانيـة الزاحفة وقضت على حركته .

الحركات المهدية والاصلاحية الأخرى :

كانت حركات الفولانى كما سبق أن ذكرنا تتسم بطابع التوسع والشمول الاقليمى ومن ثم سجلها التاريخ الحديث وعرفت على نطاق واسع ، غير أن الحركات الاخرى كانت حركات محلية صرفة

---

(١) لاميدو يعنى الأمير أو السلطان فى لغة فولانى الكمرون ، وموديبو يعنى المؤدب أو المعلم وقد اتخذ فولانى شمال الكمرون ومنطقة شمال الكمرون اسـم آداملواء بالنسبة الى بنى أداما .

اتخذت صورة الحركة المهدوية ولكنها كانت تحمل بين طياتها ملامح الاصلاح الدينى ومن هذه الحركات حركة المهدى محمدو رآيرو الذى ثار عام ١٨٢٨م فى وجه الامام التيجانى الذى هادن الفرنسيين الذين بدأوا يسيطرون على ساحل السنغال وانشأوا مركزا لهم فى سانت لويس شمال داكار ، وقد استمر يحارب مع اتباعه التوغل الفرنسى ويدعو ضد التيجانى مدعيا المهـدية وداعيا الى الجهـاد والاصلاح الدينى والعودة الى الاسلام الصحيح حتى قتل وخلفه ابنه شيخنا أحمدو المهديو « أحمدو المهدى » الذى استمر يحارب التوغل الفرنسى من عام ١٨٦٨م الى سنة ١٨٧٥ م .

وقد قام بعض زعمـاء السراكولا وهى من جمـاعات الماندى المعروفة بتمسكها بالاسلام بحركات مهدوية اصلاحية متتابعة فى انحاء غرب افريقية الفرنسية ، منهم الحاج محمدو بيسو الذى لقب نفسه محمـد الأمين واستطاع أن يضم اليـه قبائل البوبو ويقودهم للجهاد ضد الفرنسيين ، وقد استقل بمنطقة البوبو فى شمال فولتا العليا ثلاث سنوات ثم استطاع الفرنسيون عام ١٨٨٧م القبض عليه وسجنه والقضاء على حركته .

ولكن ظهر من السراكولا أيضا خليفة له يسمى محمدو بودو الذى استمرت حركته ضد الفرنسيين من عام ١٨٩١ م الى عام ١٨٩٥م وخلفه الحاج فودى اسماعيل توتكارا الذى نجح عـام ١٩٠٨م فى خلق تضامن بين السراكولا والبامبار المسلمين ضد الحكم الفرنسى فى مالى وغينيا ولكن الفرنسـيين ظلوا يكافحون ثورته الدينية سنوات عديدة اضطر بعدها الى اللجوء الى جبال فوتاجالون حيث اتخذ هناك موقعا حصينا يواصل فيه تعليم تلاميذه وتفقيههم فى الاسلام .

هذا ، وتعتبر الحركات الصـوفية مثل الحمالية والليانيـة والمريدية من حركات الاصلاح الاسلامية فى غرب افريقية حيث أنها

اتخذت نفس السبيل وهو الاصلاح الدينى ودعوة غير المسلمين الى الاسلام ومحاربة التغلغل الاستعمارى ، وتعتبر الحركة الحمالية التى سبق الاشارة اليها كاحدى سوالخ الطرق الصوفية هى أقوى حركات الاصلاح الدينى السياسية فى القرن العشرين ، وقد عمل زعيمها تيرنوبوباكر ـ الذى خلف مؤسسها حماه الله ـ الى جانب الاصلاح الدينى على محاربة النفوذ الفرنسى فى جنوب مالى حيث استمرت الثورات هناك على الحكم الفرنسى من مطلع القرن العشرين حتى عام ١٩٥٨ م .

وقد قامت حركات مهدية اخرى خلال القرن العشرين اتخذت إيضا طابع الثورة على الحكم الاستعمارى مثل حركة فودي سليمان باجا الذى ثار على النفوذ الفرنسى فى مدينة « كاى » بالسنغال عام ١٩٠٨ وأداما دامبيلى الذى ثار فى منطقة صان بمالى عام ١٩١٦ م وحركات اخرى قام بها أمراء الفولانى فى نيجيرا فى كل من كاتسبنا عام ١٩٢٢م وسوكوتو عام ١٩٢٤م وزاربا عام ١٩٣٩ م ، ومنطقة اداماوا البريطانية عام ١٩٤٩م ، وكانت كلها حركات ثورية ضد الحكم الاستعمارى ولكن الاستعمار شوه شكلها وأثار زعماء المسلمين عليها على أنها حركات ادعاء للنبوة او ادعاء للمهدية ليتمكن من ضربها بشدة دون معارضة المسلمين .

* * *

هكذا بنى الاسلام حديثا فى أفريقية بانتمائها الى المذاهب الاسلامية الكبرى ، وبالصوفية التى شكلت الحياة الدينية للأغلبية الاسلامية ، وبالحركات الاصلاحية والجهاد فى جميع الأنحاء حيث انتشر الاسلام على يد المجاهدين والدعاة والمصلحين فى جميع الأنحاء وساعد على تمسك المسلمين باسلامهم .

ولئن كان العهد الاستعمارى قد قضى على جميع الحركات الاسلامية الاصلاحية التى اعتبرها تمردا على الحكم الا أن هناك

بعض بؤرات للاصـلاح ومراكزه التى ما زالت بها فكرة المهـدية الاسلامية تداعب أذهان أبنائها فى نيجيريا وتشاد والكمرون ومالى وغينيا وغيرها ، غير أن فرصة هذه الحركات فى الوقت الحاضر قد تضاءلت بسبب ارتباط الحياة الدينية بالسياسة بعد اسـتقلال الدول ودخول المفهوم الأوروبى الحديث فى التنظيمات السياسية .

ولا بد لنا هنا أن نذكر حركتين معاصرتين لا يمكن اغفالهمـا اطلاقا أولهما حركة المرحوم السردونا أحمـدو بللو رئيس وزراء نيجيريا الشمالية الذى ربط بين حزبه السياسى وبين حركة نصر الاسلام هناك والتى ما زالت قائمة بنشاطها الدينى الاصلاحى حتى وقتنا هذا ، وكذلك حركة الاتحاد الثقافى الاسلامى التى ظهرت فى جميع انحاء أفريقية الغربية الفرنسية وارتبطت بحزب التجمع الديمقراطى الافريقى حيث ساعدت على قيادة الشعوب فى افريقية الغربية الفرنسية نحو استقلال كما سنشير الى ذلك عند دراسة حاضر الاسلام فى القارة .

الفصل الخامس

عوامل الهدم الخارجى

تناولنا فى الفصل السابق ثلاثة من الظاهرات التى كان لها تأثيرها على وضع الاسلام وهى :

تجمعات المذاهب الاسلامية الكبرى والطرق الصوفية والحركات المهدوية وكانت هذه الظاهرات الثلاث عناصر بناءة فى حياة الاسلام فى افريقية واقرار وضعه وتثبيت وجوده .

على أن هناك عوامل أخرى عملت على هدم واضعاف الاسلام فى افريقية تتمثل فى هجرة الفرق الدينية المنحرفة والتبشير والاستشراق والسياسة الاستعمارية وهى التى سنتناولها بالعرض فى هذا الفصل .

الفرق الدينية المستوردة

وتتمثل فى الاسماعيلية والأحمدية القاديانية التى وفدت الى القارة الأفريقية مع الاستعمار الذى شجع أهل هـذه الفرق على الهجرة الى القارة الافريقية والقيام بنشاط واسع فى أوساط المسلمين بقصد تفتيت وحدتهم ، وخلق تجمعات متصارعة تؤدى بطريق مباشر الى خدمة أهداف الاستعمار فى اضعاف الكيان الاسلامى حتى يطيب لهم الحكم فى وسط ينشغل فيه المسلمون بخلافاتهم وليتفرغ المستعمرون لاستثمار البلاد واستنزاف مواردها وتسخير أهلها للمصالح الاستعمارية الخاصة .

١ ـ الاسماعيلية :

المعروف بصفة عامة أن الاسماعيلية طائفة شيعية متطرفة تنتسب الى الامام اسماعيل ابن الامام جعفرالصادق ، وقد انتهت حركة الشيعة بظهور الفاطميين الذين تفرع عنهم بعد انتهاء الملك الفاطمى طوائف متعددة منها المتطرف مثل الباطنية والحشاشين ، والدروز فى بلاد الشام ومن النزاريين فرع نما فى الهند وعرف باسم الاسماعيلية وهم باطنية، أهم مبادئهم أن هناك تعاليم ظاهرية للعامة وتعاليم باطنية للأئمة، وتتمثل التعاليم الظاهرية فى تخفيف العبادات واسقاط بعض الفرائض وتحمل الأئمة مسئولية أدائها عن المسلمين اما التعاليم الباطنية فهى التى تحدث عنها القاضى النعمان وجعفر ابن المنصور اليمنى وانبنت عليها الكثير من البدع الدينية والسياسية التى افسدت العقيدة وجعلتها منحرفة عن جوهر الاسلام وقد وجد الاستعمار البريطانى فى الهند وفى وجود الاسماعيلية وسيلة لبث الفرقة وتعميقها بين المسلمين من أجل تفتيت وحدتهم ،وشجعوا على هجرة الكثير من الهنود الاسماعيلية الى مستعمراتهم بشرق افريقية حيث كونوا هناك جاليات كبيرة ذات ثراء ونفوذ عمل الكثير من قوادها على خدمة أهداف الاستعمار البريطانى فى السيطرة على الشعوب واستنزاف ثرواتهم وقواهم العاملة ، ولقد ساعدتهم الحكومات الاستعمارية على اقامة تعليم خاص بهم فى مدارس ومراكز ومساجد أعينوا على اقامتها ماديا وأدبيا لجذب أبناء المسلمين وابعادهم عن أهلهم وذويهم تحقيقا لهدف التفريق بينهم .

٢ ـ الأحمدية القاديانية :

وهى الطائفة التى أسسها ميرزا غلام أحمد القاديانى نسبة الى قرية قاديان فى البنجاب بالباكستان ، وقد ظهرت كطائفة فى الاحصاءات الرسمية لحكومة الهند الاستعمارية سنة ١٩٠٠ وتنادى هذه الطائفة بثلاثة مبادىء هى :

(ا) ان محمدا ليس خاتم الأنبياء بمعنى آخرهم ولكنه كالخاتم فى الاصبع أى زينتهم وان هناك أئمة مهدويين سينزل عليهم الوحى ويدعون الناس للهداية على دين اسماعيل دين الاسلام.

(ب) أن فريضة الجهاد قد رفعت عن المسلمين .

(جـ) ان على كل مسلم طاعة ولى الأمر حتى لو كان كافرا .

وواضح أن مبادىء الأحمدية الثلاثة وهى التى يختلفون فيها عن بقية المسلمين لا شك تدفع المستعمر البريطانى على تشجيعهم لأن فيها تحقيقا لأهدافه ، ذلك أن فكرة امكان نزول الوحى سوف تؤدى ــ وأدت فعلا ــ الى جدل بين المسلمين وخلافات تشغلهم عن مصالحهم المشتركة ضد المستعمر ، ومبدأ رفع فريضة الجهاد يدعو الى الاستسلام وتوقف الحرب ، ومن ثم تخمد جذوة الثورة بين المسلمين فى المستعمرات أما مبدأ طاعة ولى الأمر ، فانه من الواضح أنه يخدم المستعمر برضى سكان المستعمرات للخضوع لسلطانه حيث هو ولى الأمر فيهم .

ولذلك شجع الانجليز حركة التبشير الاحمدية فى شرق وغرب افريقية لخدمة هذه الأهداف ، وامدها بالتأييد الأدبى والمادى ورغم ذلك فان المسلمين فى جميع أنحاء أفريقية متمسكون بعقيدتهم الخالصة وتأثير هذه الحركة ضئيل للغاية وكسبها وسط المسلمين محدود ، وان كان كل مكسبها من بين أبناء القبائل الذين لم يسبق دخولهم الاسلام . ومما يستحق الذكر أن هذه الطائفة تحارب فى جميع أنحاء افريقية التى كانت خاضعة للاستعمار الفرنسى لأن الفرنسيين تركوها وشأنها ووقفوا منها موقفا سلبيا انتهى بأن تكاتف المسلمون على طرد المبشرين الأحمدية ووقف محاولاتهم فى اقامة ارساليات فى كل من توجو وساحل العاج .

وتبدو مظاهر تأييد الاستعمار البريطانى للحركة الأحمدية واضحة فى الاعتراف بهم وامدادهم بالمعونات المالية لبناء المدارس

والمساجد والمستشفيات والعيادات الخارجية واعتبارهم من مؤسسات التعليم التطوعية الأهلية ، ولذلك انشأوا عديدا من المدارس وكثيرا من المستشفيات والمساجد ودور العلاج والمراكز الثقافية وبدأ نشاطهم يمتد الى أوساط المسلمين السنية فى غرب افريقية وبخاصة فى المناطق الحديثة الاسلام أو المناطق التى دخلها الاسلام متأخرا فلم يتركز فيها وأتى عليه الاستعمار فعزله عن مراكز الثقافة فى الشرق العربى والشمال الافريقى مما جعل الادراكات الاسلامية فيه ضعيفة مثل غانا وجنوب نيجيريا .

وقد نشأت فى نيجيريا حركة احمدية جديدة فى أواخر الاربعينات من هذا القرن تدعو الى الانفصال عن ارساليات التبشير الاحمدية الوافدة من باكستان وأفرقة الحركة الاحمدية فى نيجيريا بقيادات وزعامات افريقية صرفة . ولئن كانت هذه الحركة قد انفصلت عن الأحمدية وما زالت تحمل اسم حركة الاحمدية فى الاسلام الا أن ولاءها الفكرى وادراكها لمبادىء الأحمدية ضعيف مما جعل الأحمدية القاديانية تحاربها بشدة كما تحارب سائر الحركات الثقافية الاسلامية .

ومما يستحق الذكر ان سلطان سكوتو فى نيجيريا الذى يمثل القيادة الدينية قد أعلن رسميا ان الأحمدية لا يعتبرون مسلمين مما جعل الكثير من الوطنيين ينفضون عنها .

الاستعمار والتبشير والاستشراق

لم تقتصر الحرب الصليبية على اتجاه القوى الأوربية للسيطرة على الأراضى المقدسة فى الشرق الأوسط بل انها امتدت الى ماوراء العالم الاسلامى لاقامة سياج مسيحى من الجنوب يكمل احاطة العالم الاسلامى بكتل مسيحية من حوله شماله وجنوبه — وقد جاء هذا الاتجاه السياسى متفقا مع الأسطورة المسيحية المشهورة

التى تتخيل وجود ملك مسيحى يحكمه « برسترجون » أو القديس جون فى مكان ما بالشرق ولابد من الوصول اليه .

وقد كان واحد من الدوافع الدينية لدوران المكتشفين حول القارة الافريقية هو العثور على هـذه المملكة المسيحية المفقودة ، واودى ذلك بالبرتغاليين الى العمل على محاربة المسلمين وضربهم بعنف لاضعافهم واحلال السـيطرة المسيحية محلهم كما حدث فى أسـبانيا من قبـل ، ثم تطور الفكر الكاثوليكى الى العمـل على اقامة ما يشـبه مملـكة برسـترجون المتخيـلة لاحاطة العـالم الاسلامى وذلك بنشر المسـيحية فى سواحل افريقية ، ومن هنـا بدأ التبشير مبكرا فى القرن السادس عشر كاستمرار سلمى للحرب الصليبية .

واستمر التبشير المسيحى فى سواحل افريقية منـذ القرن السادس عشر يمهد للقوى الاستعمارية للسيطرة على البلاد وذلك بخلق عنـاصر من السـكان تدين بالولاء الذهنى للفكر الأوروبى الغربى مع خلعهم فكريا عن مقومات ثقافاتهم الوطنية الاصيلة .

وكانت وسائل التبشير فى ذلك متعددة تتمثل فى تقديم الخدمات الطبية والتعليمية والترفيهية ثم التأثير الدينى بمختلف وسائل الترغيب والترهيب .

وتتضح أهداف التبشير فى افريقية من كتابات المبشرين أنفسهم ونسـوق هنا مثالا من أقوال القس سبنسر ترمنجهـام فى كتابه « الكنيسة المسيحية بالسودان بعد الحرب المسيحية بالسودان بعد الحرب العالمية الثانية حيث يقول : « ان الهدف الرئيسى للكنيسة هو خلق كتلة مسيحية تقف فى وجه الكتل الاسلامية المتواجدة فى الدول الافريقية اذا ما ادعت لنفسها حق السيطرة أو النفوذ فى تلك الدول » .

وبلا رجوع للأقوال نجد أن السياسة الاستعمارية قد ثبتت اقدام التبشير وامدته بكل وسائل التشجيع المادى والأدبى ليقوم بالدور الأول فى ميدان التعليم حتى اصبح التعليم طوال القرن التاسع عشر وحتى وقتنا هذا فى كثير من الدول الافريقية التى كانت مستعمرات ثم استقلت أصبح فى يد الارساليات التبشيرية ولم يكن يسمح بالتعليم لغير المسيحيين حتى أن بعض أبناء المسلمين الراغبين فى التعليم كانوا يضطرون الى ترك دينهم من اجل تحصيل العلم فى مدارس التبشير .

وبالطبع كان ومازال التعليم الذى تتولاه الارساليات التبشيرية مطبوعا بالطابع المسيحى الصرف ، ويهدف الى خلق ولاء ذهنى للمستعمر وللحضارة الغربية ، ونشر الشعور بالنقص لدى الافريقيين ، واشاعة فكرة الاعتماد الكامل على الرجل الأوروبى الذى جاء بالحضارة الى تلك البلاد ، وغير ذلك من المؤثرات الفكرية التى تعمل على تثبيت التبعية لأوربا وللرجل الأبيض فى نفوس وأذهان الافريقيين .

ولقد سارت سياسة الاستعمار والتبشير والاستشراق معا على مخطط واحد يتمثل فيما يلى :

١ ــ التهجم الصريح على الاسلام واثارة الشبهات حول بعض الأمور الاعتقادية والاجتماعية والسياسية وتفسيرها تفسيرات مغرضة ، ومثال ذلك دعاوى المستشرقين الآتية :

(أ) أن القرآن كتاب مسيحى \ يهودى نسخه محمد (صلى الله عليه وسلم) وأضاف عليه .

(ب) أن الاسلام دين مادى يدعو الى الدنيا وملذاتها ممثلا فى نظام الزواج الحيوانى وما فيه من تعدد للزوجات .

(جـ) أن الاسلام يدعو الى التواكل ولا يسـاعد على النهوض والتمدين .

(د) أن الاسلام دين حرب يدعو الى القسوة والاعتداء على غير المسلمين .

(هـ) أن الاسلام دين عنصرى يفضل العنصر العربى ولذلك كان القرآن عربيا .

الى غير ذلك من الادعاءات والدعاوى والأفتراءات التى يستطيع اى مسلم مدرك لحقيقة الاسلام ادراكا واعيا أن يردها .

٢ ــ الغض من الأثر الحضارى للاسلام بادعاء أن الفكر الفلسفى الاسلامى يونانى الأصل ليس فيه تصرف من جانب المسلمين وأن الحضارة الاسلامية حضارة قائمة على العنصرية العربية ، وابراز الانحطاط الاجتمـاعى فى حياة المسلمين بمقارنتها بحيـاة الغرب ومستوى معيشتهم ، وتبرير ذلك الى أن التمسك بتعاليم الاسلام تقف بالمسلمين عند حد معين من التطور لا يمكنهم تعديه ، وذلك مع اغفال أثر الاسـتعمار واستخدامه القوة لاخضاع الشـعوب الاسلامية لنفوذه ثم منعها من التطور ومسايرة الحضارة العالمية بشتى الوسائل الاستغلالية .

٣ ــ الدعوة الى احياء الحضارات والثقافات الاقليمية التى كانت من أهم الاهداف الثقافية للاسـتعمار البريطانى فى مناطق مستعمراته ، فقد كان من سياسته العمل على احياء اللغات الوطنية لوقف تيار انتشار اللغة العربية ومن ثم اقامة فاصل بين العالم الاسلامى فى الشمال الأفريقى والشرق الأوسط وأفريقية فيما يلى الصحراء ، واتبع لذلك وسائل عدة أهمها :

(أ) تشجيع المبشرين على دراسة اللغات الوطنية وكتابتهـا بالحروف اللاتينية .

(ب) منع كتابة اللغات الوطنية مثل الهاوسا والفولانى والوولوف فى غرب افريقية والسواحيلى فى شرق أفريقية بالحروف العربية التى كانت تكتب بها منذ عهد ما قبل الاستعمار بقصد قطع الخيط الذى يربطها بالعربية .

(جـ) اصدار الصحف وتنظيم اذاعات باللغات الوطنية دون العربية .

(د) العمل على تطعيم اللغات الوطنية بكلمات انجليزية تدريجيا للقضاء على ما فيها من كلمات عربية دخلتها مع الاسلام أو على الأقل للاقلال من أهمية صلتها بالعربية .

(هـ) الدعوة والدعاية الى اقامة ثقافة زنجية وابرازها بقصد فصل افريقية الزنجية عن العالم العربى فى الشمال الأفريقى .

٤ ـ محاربة التعليم الاسلامى والعربى الذى اختلف الفرنسيون عن الانجليز فى سياستهم نحوه ، فاتبع الفرنسيون سياسة صريحة هى منع التعليم العربى اذا استطاعوا واحلال التعليم الفرنسى محله ، أما الانجليز فقد اتبعوا السياسة السلبية فى موقفهم من التعليم العربى بعدم مده بالاعانات ، وعدم قبول من يتخرجون فى المدارس العربية بالمدارس الثانوية ليموت هذا التعليم ويندثر من تلقاء نفسه مما سنشير اليه بالتفصيل بعد .

٥ ـ اثارة الخلافات بين المسلمين على أساس عنصرى كما هو الحال فى شرق أفريقية حيث استغلوا أجناس المسلمين الممثلين هناك من عرب وهنود وأفروشيرازيين وبانتويين لاثارة المنافسة السياسية بينهم على الحكم بمختلف الوسائل .

٦ ـ استغلال الخلافات المذهبية والمذاهب المنحرفة لاضعاف الكيان الاسلامى فثبتوا الاباضية فى زنجبار وحافظوا لهم على

السلطان مما اثار حفيظة السنية والشيعة الزيديةعليهم وشجعوا الاسماعيلية والأحمدية تشجيعا أدبيا وماديا لاحـداث التفرقة المذهبية الصارخة بين المسلمين وتفتيت وحدتهم ومن ثم اضعاف كيانهم الاسلامى .

٧ ــ الدعاية المغرضة ضد الحركات الاصلاحية ممثلة فى حركة الاتحاد الثقافى الاسلامى فى افريقية الغربية الفرنسية واثارة أهل الطرق الدينية عليها بتخويفهم من أثرها على نفوذهم الدينى ممـا ادى الى اشتداد الخلاف ووصوله لدرجة الاصطدام بين المسلحين من جهة والطرفيين من جهة أخرى ، وأوجد ذلك الفرصة لتدخل السلطات الفرنسية لوقف الاصطدام ومنع النشاط الاسلامى .

السياسة التعليمية للاستعمار

كانت اول واهم وسيلة اتبعها المستعمرون كما ذكرنا هى محاربة الاسلام بالمسيحية فأرسـلوا البعثات التبشيرية مزودة بتعـاليم الاستعمار والتسلط الاجنبى متجردة من طبيعة التسـامح التى تميز المسيحية واسـتطاع المبشرون شراء عقـائد بعض الذين استأجروهم من الأفريقيين وتعلموا منهم لغتهم واتخذوا من هذه اللغات وسيلة لجذب الافريقيين حولهم ، وكان الافريقيون الذين لم يدخلوا الاسلام يعيشون فى فراغ روحى يتطلعون الى عقيدة راسخة تنظيم لهم حياتهم الروحيـة فأقبـل البعض ممن خدعهم المبشرون بالمال والتعليم ومظاهر الحضارة علي المسيحية فتكونت لدى المستعمرين الاداوات الثقافية الأولى ممثلة فيمن انخدع فى المبشرين من أبناء القبائل .

ولما لم يجدوا فى مجرد الدين وسيلة ناجحـة لكسب الولاء ، وحينما ادركوا أن الأفريقيين لا يقبلون ــ بطبعهم وبحكم معتقداتهم الأصلية ــ على المسيحية بالسهولة واليسر الذى كانوا يقبلون به على الاسلام ، وجهوا جهود المبشرين الى التعليم والخدمات الصحية

والاجتماعية ليتجمع حولهم أكبر عدد منهم ، غير ان هذه الوسيلة لم تنجح فى اول الأمر مما الجأهم الى استخدام وسيلة القوة العسكرية لبسط نفوذهم .

ومنذ ان بسط المستعمرون نفوذهم على القارة وتقسموا أرضها نهائيا بعد مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ بدأ الصراع الثقافى يدخل مرحلة جديدة يهدف فيها الاستعماريون الى وقف تيار الثقافة العربية والاسلامية تماما لاخلاء السبيل لثقافتهم ، واتبعوا لذلك مختلف الوسائل .

ولقد اختلفت السياسة التى اتبعها الفرنسيون ازاء التعليم الاسلامى والثقافة العربية عن سياسة الانجليز ، فبينما اتبع الفرنسيون سياسة المحاربة المباشرة اتبع الانجليز سياسة تدريجية
وهناك عاملان هامان وجها السياسة الفرنسية ازاء التعليم الاسلامى فى افريقية هما :

١ ـ المقاومة العنيفة التى لاقاها الفرنسيون من الجماعات الاسلامية فى أنحاء غرب أفريقية ، أدت الى اصابتهم بنوع من الخوف الشديد دفع بهم الى تشديد النكير على المسلمين فى مستعمراتهم .

٢ ـ الغزو الثقافى الذى يميز العقلية الفرنسية والذى ينبثق عن سياستهم التى ترمى الى بسط ثقافتهم على جميع الشعوب بشتى الوسائل لتحقيق (فرنستها) أو امتصاصها فى الثقافة الفرنسية .

وقد اختلف البريطانيون عن الفرنسيين فى سياستهم فبينما اتبع الفرنسيون تلك السياسة المباشرة للقضاء على التعليم الاسلامى ومحاربة الثقافة الاسلامية اتبع البريطانيون سياسة خاصة غير مباشرة تعتمد على عدة عناصر رئيسية هى :

١ ــ التسلل التدريجى للقضاء على الثقافة الاسلامية واللغة العربية واحلال الثقافة واللغة الانجليزية محلها ومحل الثقافة العربية فبدأ البريطانيون بتشجيع دراسة اللغات المحلية واثارة النعرات القومية أو الاقليمية التى اعتقدوا أنها قد تضعف من كيان الثقافة الاسلامية .

٢ ــ الموقف السلبى من التعليم الاسلامى اذ أنهم تركوا للتعليم الاسلامى الحرية الكاملة لمتابعة نشاطه ووقفوا منه موقفا ليس فيه محاربة علنية ولا تشجيع أو معونة ، بينما شجعوا الارساليات التبشيرية وقدموا لها كل العون المادى والأدبى وللمتخرجين فى مدارسها وفى المدارس الحكومية كل سبل الحياة وشغل الوظائف وارتقاء المناصب التى حرم منها جميعا كل خريجى المدارس العربية الاسلامية وذلك بقصد ابعاد الأفريقيين عن هذا التعليم الاسلامى وجذبهم نحو التعليم غير الاسلامى .

٣ ــ استغلال الخلافات المذهبية فى الاسلام لخلق نوع جديد من الفرقة بين المسلمين حتى فى ميدان التعليم وظهر هذا العنصر بوجه خاص فى شرق افريقية حيث استغلوا الهنود وصلات الهند القوية بهذه المنطقة من افريقية عبر المحيط الهندى لتشجيع انتقال الأحمدية القاديانية والاسماعيلية الى هذه البقعة ، وتشجيع هاتين الطائفتين على اقامة نشاط تعليمى وثقافى يؤدى الى التعدد المذهبى واشتداد المنافسة لكى يتمكنوا وسط هذا الصراع من نشر ثقافتهم وبسط نفوذهم ، ثم شجعوا أيضا نقل الأحمدية الى غرب افريقية لتمارس نشاطها التبشيرى والتعليمى هناك .

ردود فعل المؤثرات الخارجية فى التعليم

وعلى الرغم من جميع الجهود التى بذلها المستعمرون والوسائل المختلفة التى اتبعوها فان التعليم الاسلامى قد استمر دون أن

يقضي عليه قضاء تاما ، استمر دون توقف نتيجة لعوامل متعددة اهمها :

١ ـ ارتباطه بالعقيدة الاسلامية المتغلغلة فى نفوس الشعوب الأفريقية المعتنقة للاسلام .

٢ ـ شعور الشعوب الأفريقية بأن التعليم الاستعمارى والتبشيرى دخيل على القارة الأفريقية وغير نابع من حياة شعوبها .

٣ ـ استمرار الصلة بين مراكز الثقافة فى الشمال الأفريقى فى مصر والمغرب وبين مسلمى افريقية فيما يلى الصحراء بشتى الصور وبحكم الصلات التجارية أيضا .

٤ ـ استمرار الصلة مع المشرق العربى وبخاصة الحجاز نتيجة لاستمرار الرحلات السنوية لأداء فريضة الحج فى الأراضى المقدسة .

٥ ـ بقاء نشاط رجال الطرق الصوفية ، ولجوء الاستعمار الى مهادنتها بقصد الاستفادة من وجودها فى خلق خلافات بين الشعوب .

غير أن هناك حقيقة هامة لا يمكن انكارها وهى أن التعليم الاسلامى قد أصابه بعض الضعف بل قد توقف تطوره وبقى على ما كان عليه فى عهد ما قبل الاستعمار ولم تكن من ورائه القوة الدافعة التى تساعده على التطور الى ما يتلاءم مع التقدم الحديث .

ويعتبر الأزهر الشريف واستمراره كقبلة للعالم الاسلامى كله بعامة وشعوب افريقية المسلمة بصفة خاصة من أهم عوامل الحفاظ على استمرار التعليم الاسلامى فى أنحاء القارة الافريقية على الرغم من محاولات الاستعمار لقطع الصلة بين مسلمى افريقية وبينه .

واحتك الطلاب الافريقيون الوافدون من كل أنحاء القارة للدراسة بالأزهر الشريف فى أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر بحركة الاصلاح الاسلامية التى قادها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وعاصرها عدد من أبناء القارة الأفريقية كما تأثر بها الجيل التالى لهم ، وكان من أهم نتائج هذا الاحتكاك أن مؤلفات الشيخ محمد عبده وتلاميذه قد انتشرت فى غرب أفريقية انتشارا واسعا وحل بعضها محل الكتب القديمة التى كانت تدرس فى مجالس العلم والمدارس الاسلامية المنتشرة فى جميع أنحاء القارة وذلك رغم الجهود الكثيرة التى بذلها الفرنسيون والانجليز لقطع الصلة بين الأزهر ومسلمى غرب أفريقية .

ولم يقتصر أثر حركة الاصلاح الاسلامى على الادراكات الجديدة التى انتشرت بين الافريقيين فقط بل تعدى الأمر ذلك الى نشأة تنظيمات اصلاحية عديدة ذلك أن المسلمين فى القارة الافريقية أخذوا يقيمون فى الجمعيات الاسلامية التى تهدف الى تنظيم الجهود أساسا فى المجال التعليمى بقصد رفع مستواه وتقويته وتحسينه وتطويره بما يتلاءم مع التطورات الحديثة وكان لبعض هذه الجمعيات الاسلامية هدف سياسى الى جانب الهدف التعليمى هو المشاركة فى الحركات التحريرية مما سنشير اليه بعد (١) .

ونتيجة لهذا التيار الذى سارت فيه الشعوب الافريقية المسلمة اضطر الاستعمار الى تعديل سياسته ولكن هذا التعديل فى السياسة لم يرتبط به تغيير فى الهدف الذى كانت ترمى اليه دول الاستعمار منذ بداية استعمارها وهو محاربة التعليم الاسلامى والقضاء عليه لافساح المجال فى الحياة الافريقية للثقافة الاستعمارية وكما كانت السياسة الأصلية للاستعمار مختلفة بعضها عن بعض

---

(١) راجع الفصل السادس : التعليم الاسلامى والجمعيات الاسلامية .

فقد اختلفت أيضا سياستها بعد التعديل الذى أدخلته نتيجة لحركات الاصلاح الاسلامية .

وقد تابع البريطانيون سياستهم فى بث الفرقة بين المسلمين عن طريق تشجيع الطوائف الاسلامية المتطرفة المنحرفة الموالية لهم مثل الاسماعيلية والأحمدية وهيأوا لها كل سبل العمل ويسروا لها فتح المدارس ونشر الكتب الخاصة ، وقدموا لها كل ما أمكن من العون المادى والأدبى لتقوية نشاطها التعليمى والثقافى لتقف فى وجه الحركات الاصلاحية السنية على وجه الخصوص لما لهذه الحركات من صلة بالعالم العربى فى الشمال الافريقى ومصر والحجاز ، فأطلقوا يد الأحمدية والاسماعيلية فى شرق افريقية ، كما حاولوا نقلها الى غرب افريقية ونجحوا فى تشجيع بعض الأحمدية للاقامة فى كل من نيجيريا أو غانا وسيراليون ولئن كان تأثيرهم فى غرب افريقية ضعيفا الا أنه حقق بعض الغرض الذى كان ينشده الاستعمار وهو ايجاد طائفة قليلة من الأحمدية تناقض المسلمين السنيين فى نشاطهم التعليمى والثقافى .

ولم يغير الفرنسيون طبيعة سياستهم التى تهدف الى تشديد القبضة على المستعمرات وبخاصة فى المجال الثقافى بقصد فرنستها، فحينما قامت الحركات الاصلاحية المبكرة التى قام بها أفراد يدعون الناس الى ترك البدع الصوفية أمثال براهيما سوتوجو فى مدينة سيكاسو بمالى وسيسى بالادجى فى باماكو والشيخ دوكرى فى ماسينا والشيخ سعد عمر تورى فى سيجو والشيخ محمد عبد العزيز فى كاى والحاج محمود عمر السنغالى فى داكار، حينما ظهرت هذه الدعوات الاصلاحية الفردية التى قادها هؤلاء وغيرهم ممن أنشأوا المدارس ليعلموا فيها الاسلام والثقافة العربية بطرق حديثة غير مشوبة ببدع الصوفية كون الفرنسيون فى افريقية الغربية الفرنسية التى كانت تشتمل على السنغال وغينيا والسودان الفرنسى (مالى حاليا) وأعالى الفلتا وساحل العاج وداهومى وتوجو

كونوا بها مكتبا اطلقوا عليه اسم المكتب السياسي للشئون الاسلامية وعينوا مديرا له ضابطا يدعى (كاردير) وكانت مهمته العمل على وضع التعليم الاسلامى الجديد فى قبضة الحكومة الاستعمارية بقصد تنظيم نشاطه ظاهريا ومحاربته فعليا .

وقد استطاع كاردير أن يثير فى البلاد فتنة كبيرة استخدم لها بعض العملاء من المسلمين المتعلمين ، وقد استطاع ان يقنع هؤلاء أن جميع رجال الاصلاح الدينى وبخاصة رجال جمعية الثقافة الاسلامية والمدارس الفلاحية والاتحاد الثقافى الاسلامى انماينتمون الى الوهابية التى اتجهت الى هدم قبر النبى مستغلا الروح الدينية المتغلغلة والايمان القوى بالرسول لاثارة العامة على هؤلاء المصلحين .

وترتب على هذه الذائعات التى أثارها المكتب السياسي للشئون الاسلامية واستخدام بعض العملاء لنشرها أن ثارت فتنة بين أهل الصوفية والمصلحين الذين أطلق عليهم خطأ اسم الوهابية ، وبلغت الفتنة ذروتها سنة ١٩٥٧ حينما أعلن الحاكم العام الفرنسى دعوة الحاج كاراموكو كانى رئيس الاتحاد الثقافى الاسلامى ورجال التعليم الأربعة الذين تخرجوا فى الأزهر وساعدوا على انشاء تلك الجمعية وهم : محمد سنوسى وكابنينه كابا ومحمد الأمين من مالي ومحمد فوده من غينيا الى مناظرة شيخ المسجد ومعه رجال الطرق الصوفية مناظرة علنية فى ميدان الجامع الكبير فى باماكو عاصمة مالى (السودان الفرنسى فى ذلك الوقت) وكان من جراء هذه المناظرة أن خرج بعض مؤيدى الطرق الصوفية من العامة الى شوارع المدينة يحرقون مساكن ومتاجر رجال الاتحاد الثقافى الاسلامى بايعاز غير مباشر من السلطات الفرنسية الحاكمة .

وكانت هذه الحوادث هى الأمل الذى تحقق للفرنسيين فقد نجحوا فى اثارة فتنة شديدة سببها رجال الاتحاد الثقافىالاسلامى تذرعوا بتهديدها للأمن ، فأغلقوا مدارس الاتحاد الثقافى الاسلامى

فى باماكو ومدن مالى وداكار وكانتكان وكوناكرى وغيرها، واستراحوا زمنا من التعليم الاســلامى الصحيح الذى أقض مضجعهم وهدد ثقافتهم ، الى أن بدأ الاتحاد الثقافى الاسلامى وغيره من الجمعيات الاسلامية يستعيد نشاطه بعدأن أعلن الاستقلال الذاتى فى داخل نطاق الجماعة الفرنسية سنة ١٩٥٨ فبدأت الأحزاب التى تولت الحكم وعلى رأسها التجمع الديمقراطى الافريقى تعترف بنشاط هذه الجمعيات وفضلها فى مشاركة الحركات الوطنية وتسمح لها بفتح المدارس كما سنرى فى الفصل التالى .

الفصل السادس

الوضع القائم للاسلام والمسلمين

كان للتاريخ الطويل للاسلام فى افريقية وما مر به من اقامة الحضارات والتطورات الحديثة التى مرت بالمسلمين وعوامل الهدم الخارجية ـ كان لها جميعا ـ أثرها فى تشكيل الوضـع القائم للاسلام والمسلمين فى أفريقية ، وسوف نتناول فى هذا الفصـل دراسة الحصيلة التى أعطت للاسلام والمسلمين وضعهم الحاضر سواء من النواحى الثقافيـة والتعليمية أو من ناحيـة مركزهم الاجتماعى أو الثقل السياسى لهم فى الدول التى يعيشون فيها على مختلف درجات تجمعهم .

التوزيع الجغرافى للاسلام

من الواضح أن الاسلام فى افريقية قد أتى الى الشمال والى الشرق ثم اتجه من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الداخل تجاه الغرب وكان لحركة المد الاسلامى هذه أثرها الأكبر فى التوزيع الجغرافى للوجود الاسلامى فى غرب وشرق افريقية .

ويمكننا أن نلاحظ بصفة عامة :

١ ـ ان نسبة المسلمين فى السكان تقل تدريجيا كلما اتجهنا جنوبا من محور الصحراء الكبرى وكلما اتجهنا شرقا من محـور ساحل المحيط الهندى الى الداخل .

٢ ـ ان هـذه القاعدة تختلف فى منـاطق السهول ومنـاطق الحشائش المفتوحة عنها فى المناطق الجبلية أو مناطق الغـابة ،

فحيث تمتد السهول كما هو الحال فى الصومال نجد ان المد الاسلامى أعمق أثرا وابعد امتدادا الى الداخل وحيث تمتد مناطق الحشائش والغابات المفتوحة نجده يتوغل أكثر الى الجنوب فى مناطق غرب افريقية .

٣ ـ وقفت الجبال والهضاب الوعرة حائلا دون الزحف الحثيث للاسلام الى الداخل فى شرق أفريقية فحيث الهضبة الحبشية وهضبة البحيرات الاستوائية نجد ان نسبة المسلمين فى المرتفعات أقل منها فى مناطق السواحل المنخفضة وأن المرتفعات قد منعت توغل الاسلام الى الداخل بعكس ما حدث فى بلاد الصومال ذات الطبيعة السهلية التى يسرت اختلاط السكان واحتكاكهم خلافا لما حدث فى المناطق الجبلية حيث ظل سكان الجبال فى عزلة فى مناطقهم الوعرة .

٤ ـ أن الاسلام استطاع أن يعبر الغابة الاستوائية فى مناطق غرب افريقية ويصل الى الساحل مع خطوط التجارة التى تمر فى المناطق المكشوفة من الغابات الأمر الذى مكن من قيام بعض المجتمعات الاسلامية فى مناطق التوطن الحضرى فى نطاق الغابة الاستوائية وانتشرت منها مع الاحتكاك الى مناطق الريف .

وفى ضوء هذا التوزيع الجغرافى وبناء على المشاهدات الميدانية يمكننا أن نقسم دول أفريقية الغربية والشرقية من حيث نسبة المسلمين فيها على النحو التالى .

١ ـ دول بها أغلبية اسلامية تزيد على ٩٠٪ من تعداد سكانها وتتمثل فى جمهورية موريتانيا الاسلامية وجمهورية النيجر فى غرب افريقية وصوماليا فى شرق افريقية ، وواضح أن جمهوريتى موريتانيا والنيجر تعتبران امتدادا مباشرا لمناطق الاسلام فى الشمال الأفريقى ويمكن أن نضم اليهما الجزء الشمالى من تشاد وجمهورية مالى والسنغال حيث الأغلبية العظمى من السكان مسلمون، والمثل

يمكن أن يقال عن كل من نيجيريا الشمالية وغينيا اللتان تعتبران امتدادا ثانيا للانتشار المباشر للاسلام وان كانت النسبة العامة للمسلمين فى هذه الدول تتراوح بين ٨٠ و ٦٥٪ فهناك بعض الدول الأخرى نجد فيها أغلبية اسلامية موزعة ولكنها تتراوح بين ٦٠ و ٧٠٪ مثل سيراليون والكمرون وتختلف هاتان الدولتان عن المجموعة السابقة فى عدم وجود تركيز اسلامى فى بعض مناطقها اكثر من الأخرى كما هو الحال فى شمال نيجيريا وشمال تشاد وشمال مالى .

٢ ـ دول بها نسب عالية من السكان المسلمين تتراوح بين ٢٠ و ٥٠٪ ، ونجد فى غرب أفريقية من هذه الدول فلتا العليا وساحل العاج وغانا وتوجو وداهومى وليبريا وجمهورية افريقيا الوسطى ويلاحظ فى هذه الدول أن نسبة المسلمين فيها فى اجزائها الشمالية تصل الى أكثر من ٥٠٪ بينما تتناقص نسبة الوجود الاسلامى فيها كلما اتجهنا جنوبا وترتفع نسبيا مرة أخرى فى المدن الرئيسية فى الساحل حيث تجمعات المهاجرين من التجار المسلمين الذين ينتمون الى عناصر الفولانى والهاوسا والماندى والديولا ، أما فى شرق افريقية فنجد أن نسبة المسلمين فى اثيوبيا واريتريا تزيد فى الأطراف الشمالية فى اريتريا والأطراف الجنوبية فى منطقة هرر فى الحبشة حيث غالبية السكان مسلمون ، بينما نجد تركزا للمسيحية فى الأقسام الوسطى من الهضبة حيث تقل نسبة المسلمين عن النصف .

٣ ـ مناطق اقليات اسلامية كبيرة مثل ساحل شرق افريقية فى كينيا وتنزانيا حيث نلاحظ ان نسبة المسلمين تصل الى اكثر من ٥٠٪ فى المدن الساحلية الكبيرة وتقل كلما اتجهنا نحو الداخل غربا ولكنها لا تصل كما هو الحال فى دول غرب افريقية الى نصف السكان وتتراوح النسبة العامة للمسلمين فى هذه المناطق بين ٢٠ و ٣٠٪ من جملة سكانها وان كانت ترتفع احيانا فى بعض المدن الساحلية الى أكثر من ٥٠٪ كما هو الحال فى دار السلام عاصمة تنزانيا

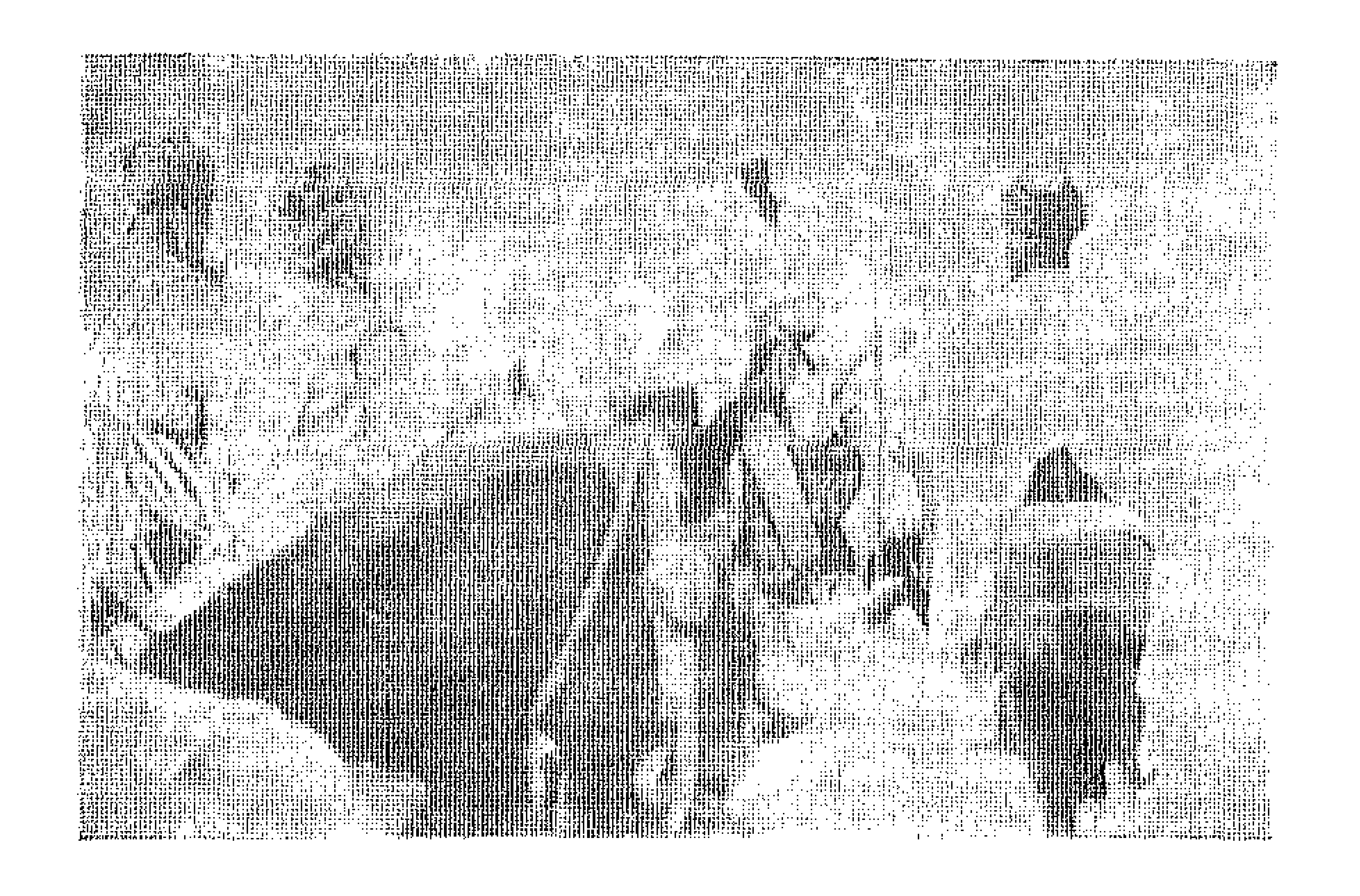
بينما نجد جزيرتى زنجبار وبمبا بهما اغلبية اسلامية عظمى تصل الى ٩٥ ٪ ولكن وجود هذه الأغلبية والنسب العالية فى الســاحل لا يؤثر فى النسبة العامة للوجود الاسلامى فى هذه الدول .

٤ ــ دول بها اقليات اسلامية صغيرة تتراوح بين ٢ ٪ و ١٠ ٪ كما هو الحال فى وسط وجنوب افريقية وتقل هذه النسبة كثيرا فى الكنغو حيث لا تزيد عن ١ ٪ من الســكان ويكاد يقتصر الوجــود الاســلامى فيها على مجتمعات الهاوســا والفولانى الذين بلغوا فى هجرتهم الى المدن الرئيسية فى غرب الكنغو أو المهاجرين السواحيلى الذين وصلوا الى الأجزاء الشرقية منه ، على أن هناك مناطق مماثلة فى بعض الدول التى بها اغلبيات اسلامية كبيرة مثل الأجزاء الجنوبية الشرقية من نيجيريا التى خضعت مبكرا للنفوذ الاستعمارى مما منع الانتشار الحثيث للاسلام فيها .

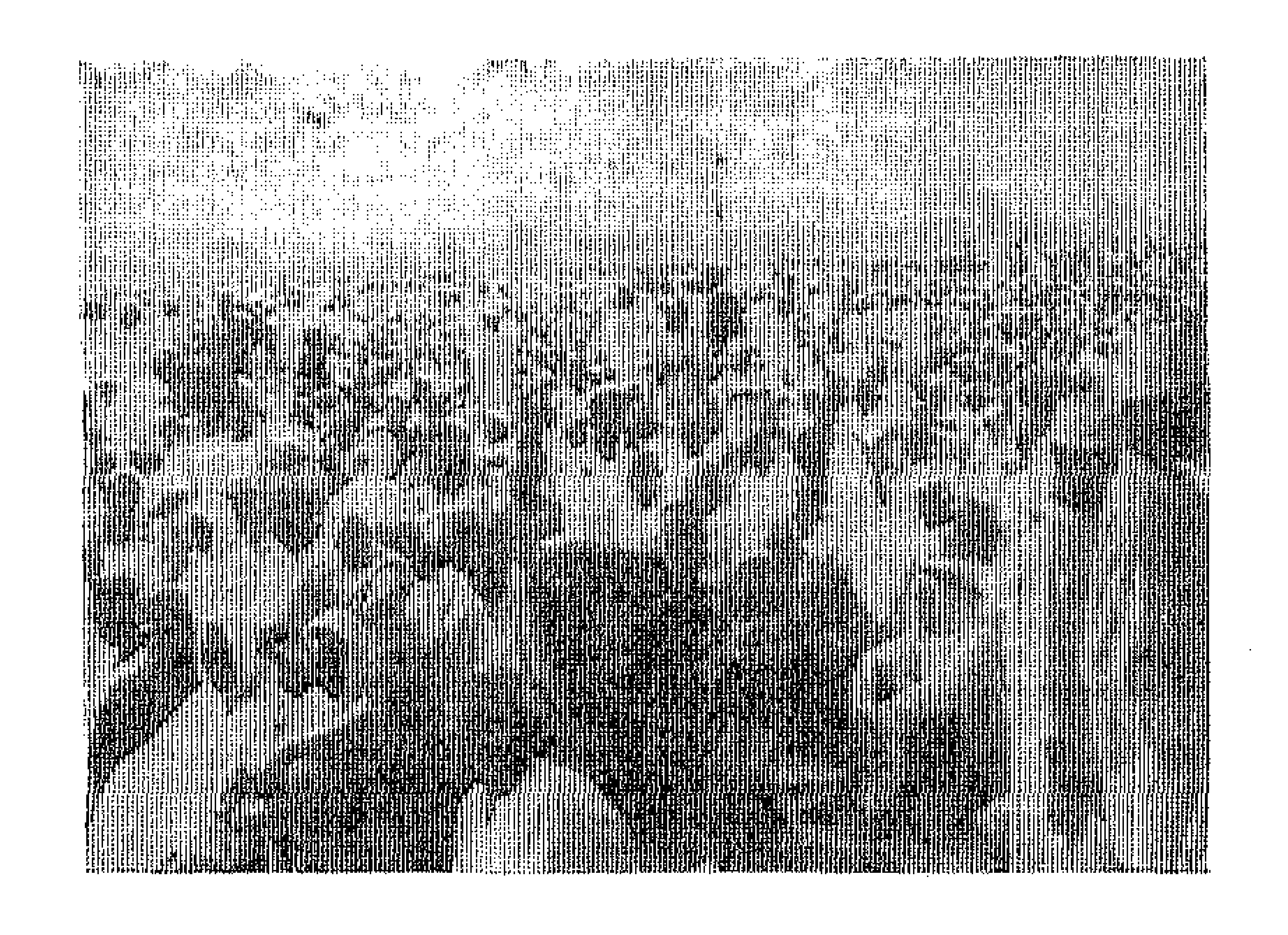
المظاهر التقليدية للوجود الاسلامى

يشعر السائح فى انحاء غرب أفريقية والصومال وســواحل شرق أفريقية بأن البيئة الاجتماعية اســلامية صرفة حيث نجد المساجد الكبيرة والمتوسطة والمصليات الصغيرة منتشرة فى جميع الانحاء من قرى ومدن ، أو فى أى مكان به أى نوع من التجمعات البشرية الاسلامية من أسواق او محلات تجارية أو غيرها ، ويلاحظ الداخل الى أى قرية مئذنة المسجد كما يلاحظ السائر فى الأسواق فى أوقات اقامة الصلاة تجمع المصلين خلف الامام لأداء الفريضة وفى اغلب الأحيان يرتفع صوت المؤذن على ضوضاء السوق .

أما فى أيام الجمع فان الصلوات تقام فى مســجد واحد حيث يمتلىء المسجد بالمصلين الوافدين من جميع الأنحاء ويحيط به آلاف المصلين الذين يحملون مســاجدهم (سجادهــم للصــلاة عليه ــ المصحح) ومسبحاتهم ويقف وسطهم الوعاظ والدعاة قبل اقامة شعائر الصلاة يفسرون آيات من القرآن الكريم ويشرحون بعض



حراس أمير كانو في صلاة العيد



التجمع لصلاة العيد في كانو

الأحاديث النبوية الشريفة ويعظون ويبشرون وينذرون بلغاتهم الوطنية ، فاذا ما وصل الأمير أو رئيس الطائفة الدينية على فرسه ومن حوله خيول الحراس والأتباع الملجمة بالنحاس اللامع والمغطاة بسروج مقصبة ، وهم يرتدون الألوان الزاهية يقرعون الطبول ويفرقعون البارود ويطلقون النفير حتى اذا استقر الأمير او الرئيس فى مكانه بالمسجد ساد الصمت وأذن للصلاة واقيمت الشعائر ، فاذا قضيت الصلاة انتشروا فى الأرض سعيا الى رزق الله .

واذا ما كانت هذه صورة صلاة الجمعة فى المدن الكبيرة فاننا نجد مثلها على صورة مصغرة فى المدن الصغيرة والقرى .

اما فى الأعياد : عيد الفطر وعيد الأضحى فان الصلاة تقام فى خلاء خارج المدن والقرى . وقد لا يجتمع فقط اهل المدينة ولكن يتوافد الى أرض الصلاة أهالي المدن الصغيرة والقرى المجاورة فى مواكب خلف امرائهم ورؤسائهم للحاق بالصلاة الجامعة ، ويزين مظاهر العيدين مواكب الأمراء والرؤساء التى تجوب شوارع المدن على الخيول المطعمة وتصحبها الطبول والمزامير وفرقعات البارود ومظاهر البهجة التى ترتفع فيها بصيحات التكبير والتهليل فى كل الأنحاء ، وقد حدث فى الوقت الحاضر مواكب السيارات المزانة بالأعلام وفروع الأشجار تسير فى قوافل مطلقة زماراتها فى ضجيج بهيج .

اما شهر رمضان المعظم فانه من المواسم الاسلامية الظاهرة الواضحة أيضا ، فنجد الجماهير تتجمع خارج المدن لرؤية الهلال وينتظر الأمراء أخبار الرؤية من أى مكان ليعلنوا بدء الصيام ويتبادلوا التهنئة بحلول الشهر المبارك . وتبدأ فى ليالى الشهر الكريم مجالس التفسير فى قصور الأمراء وبيوت الأعيان ومنازل الرؤساء والمساجد والحارات وفى ساحات القرى الصغيرة حيث يأتى كل مسلم حاملا مصحفه ومسبحته ، ليجلسوا فى تجمعات من

المئات أو الآلاف حول المعلمين والمقدمين من الصوفية والعلماء والأئمة يتابعون قراءة القرآن فى مصاحفهم ويستمعون الى التفسير يلقى عليهم فى لغاتهم الوطنية ، حتى اذا ما انتهى كل مجلس من تفسير الجزء اليومى انصرف الناس الى منازلهم أو الى مجالس سمرهم انتظارا لصلاة الفجر وتقام صلاة القيام فى المساجد والشوارع وفى أماكن التفسير قبل البدء فى القراءة والتفسير .

وتستمر احتفالات المولد النبوى اسبوعا كاملا يجتمع فى لياليها المسلمون كما يجتمعون فى ليالى رمضان يستمعون الى ذكر السيرة العطرة ويقرأون البردة وقصائد المدح النبوى المختلفة والأوراد الصوفية وغيرها ، هذا ويقام الاحتفال بالهجرة وليلة الاسراء كذلك فى بعض الأماكن على نفس النمط .

أما موسم الحج فانه ظاهرة اسلامية واضحة فى جميع أنحاء افريقية الغربية والشرقية ، يستعد الناس للحج وتقام معسكرات الحجاج خارج المطارات والموانى لتوديع الحجاج واستقبالهم وسط مظاهر البشر والابتهاج والتهليل والتكبير ، ويتجمع الحجاج من جميع الأنحاء فى المدن الرئيسية حيث يقلعون والى حيث يهبطون بعد أداء الفريضة .

والى جانب تلك المظاهر الشعبية التى تطبع المجتمع بطابع الدين الاسلامى نجد فى بعض الجهات التى بها اغلبيات اسلامية نظما اسلامية تقليدية موروثة أبقاها البريطانيون فى مستعمراتهم عملا بسياسة الحكم غير المباشر كما حاول الفرنسيون القضاء عليها تنفيذا لسياسة الفرنسة التى اتبعوها ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ، اذ بقيت بعض مظاهر النظم الاسلامية قائمة حتى يومنا هذا .

ويعتبر القضاء الشرعى من أهم المظاهر الرسمية للوجود الاسلامى فى دول أفريقية الاسلامية أو الدول ذات الأغلبيات

الاسلامية » ، وهو معترف به من جانب الحكومات حتى تلك التى يسيطر عليها قادة مسيحيون ، ويعتبر نظام القضـاء الشرعى فى شمال نيجيريا والكمرون والنيجر ومالى فى غرب افريقية والصومال وزنجبار وساحل تنزانيا فى شرق افريقية من أقوى نظم القضـاء الشرعى القائمة حيث يتدرج القضاء الشرعى من القاضى المحلى أو قاضى الخط الى قاضى القضـاة الشرعى فى المحاكم العليـا وهم يطبقون الشريعة الاسلامية بدقة كبيرة .

الجمعيات الاسلامية ونشاطها

منذ أن انفتحت القارة الافريقية على العالم الخارجى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وبعد سنوات طويلة من العزلة التى عاشها السكان فى عهد الاستعمار والحصار الذى ضربه المستعمرون على مسلمى أفريقية الغربية والشرقية لمنع قيام صـلات بينهم وبين العالم الاسلامى فى شـمال أفريقية وغرب آسـيا ، بدأ المسلمون يدركون وجودهم ويبحثون عن وسائل اثبات كيانهم فأخذوا يقومون بمحاولات لاقامة منظمات أو جمعيات اسلامية لقيت من السلطات الاستعمارية حربا شديدة ولكنها وجدت طريقها الى التواجد مع قيام طليعة التنظيمات والأحزاب السياسية التى أخذت مكانها فى ذلك الوقت .

ففى مناطق غرب أفريقيـة الفرنسية أخذ تكوين الجمعيـات صورتين رئيسيتين :

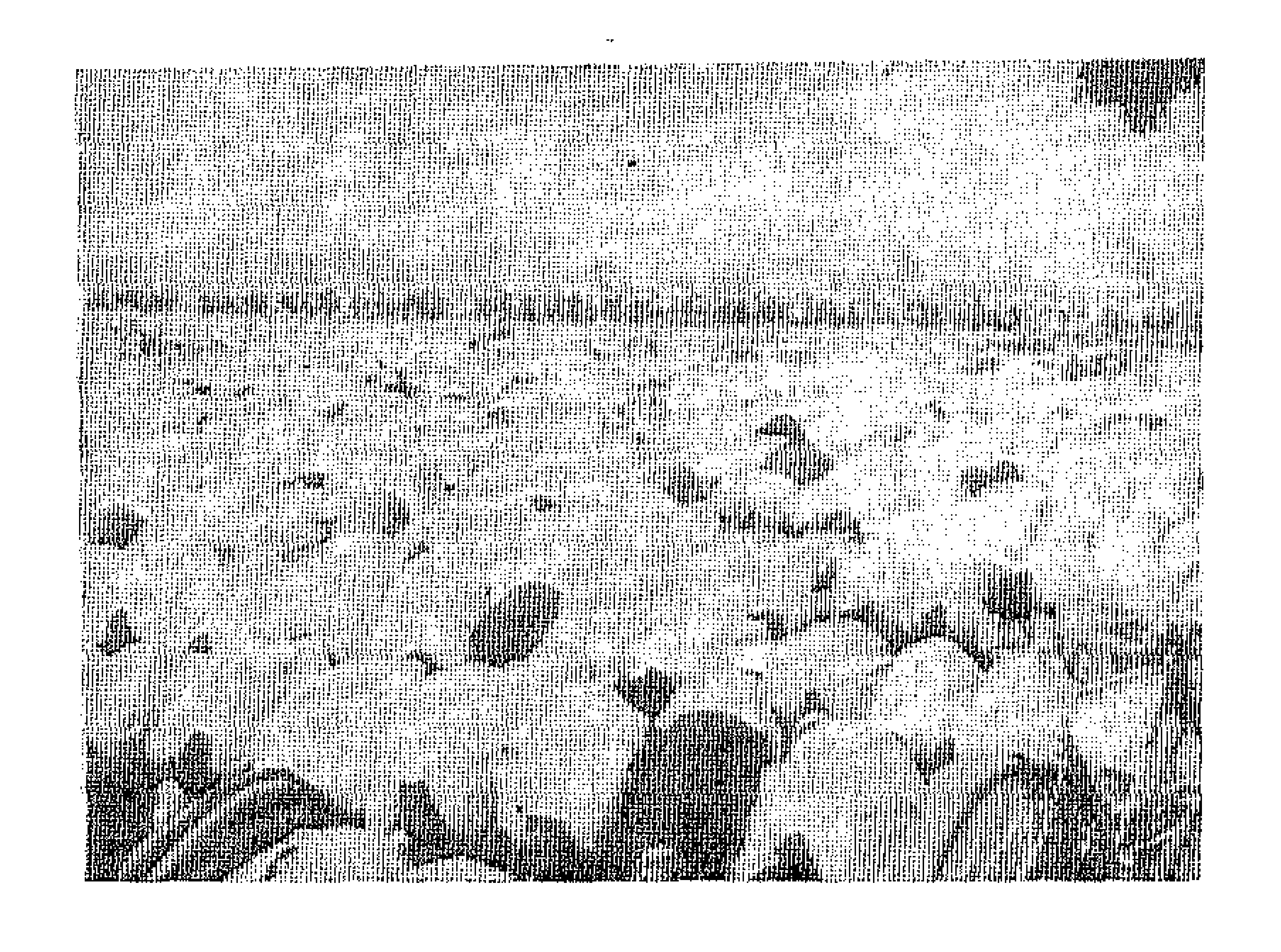
الأولى : هى الجمعيات المحلية الخاصـة التى أنشئت لاقامة المدارس والمساجد فى مختلف المدن والوحدات السياسية .

والثانية : هى الجمعيات الاقليمية التى نشأت فى مركز رئيسى وتكونت لها فروع فى دول أخرى ، وكان لها الى جانب دورها الدينى دورها السياسى .

ولقد غلب على الجمعيات الاسلامية فى المناطق الانجليزية الطابع المحلى الصرف بينما طبعت فى المناطق الفرنسية بالطابع الأقليمى الشامل .

والجمعيات المتخصصة النشاط كما ذكرنا تقتصر أهدافها وبرامجها وخط عملها على لونمعين اما التعليمأو انشاء المساجد ، ويوجد هذا النوع المتخصص من الجمعيات بصورة واضحة فى جنوب نيجيريا وغانا وسيراليون ، حيث نشاط الارساليات التبشيرية قوى لم يجد مسلمو تلكالشعوب وبخاصةشعباليوروبا فى جنوب نيجيريا بدا من أن ينظموا انفسهم فى جمعيات تقوم على انشاء المدارس والمساجد لرعاية أبناء المسلمين وتعليمهم والمحافظة على اسلام المسلمين ، ومن هذه الجمعيات على سبيل المثال جمعية أنصار الدين فى لاجوس وجمعية أنصار الاسلام فى ايلورين بنيجيريا وجمعية الأخوة الاسلامية فى سيراليون واللجنة الأهلية للتعليم الاسلامى فى الصومال ، والى جانب مثل هذه الجمعيات الكبيرة فهناك جمعيات صغيرة يقتصر نشاطها على رعاية مدرسة أو مركز اسلامى مثل مركز التعليم العربى فى أجيجى فى جنوب نيجيريا ، ومركز الثقافة الاسلامية فى تراشفيل بأبيدجان فى ساحل العاج ، ولجنة التعليم الاسلامى فى واجادوجو بأعالى الفلتا ، الى غير ذلك من الجمعيات التى تقوم على شئون التعليم .

ومن أمثلة الجمعيات التى تتولى انشاء المساجد جمعية مساجد اليوروبا التى نشأت فى نيجيريا وتكونت لها فروع فى جميع البلاد التى يهاجر اليها اليوروبا للتجارة حيث تقوم هذه الفروع بجمع التبرعات لانشاء المساجد ليؤدى فيها مجتمع اليوروبا المهاجر صلواته ويتخذهاأماكن لاجتماعاته ، أما الديولا وهم المهاجرون من شعب الماندى فى مالى وغينيا الى المدن الكبرى فقد كونوا لجانا مماثلة لانشاء المساجد فى تلك المدن ، وعادة ما تقام مساجدهم فى الأحياء التجارية حيث يتجمعون .



السجود فى ساحة صلاة العيد ـ كانو



مقدمة موكب الأمير الى ساحة الصلاة

اما عن الجمعيات الشاملة النشـاط والتى تتعدد أهدافهـا وتتشعب مجالات نشاطها فنجد من أمثلتها جماعة نصر الاسلام فى نيجيريا والاتحاد الثقافى الاسلامى فى السنغال ومالى وغينيا وغيرها من الدول التى كانت خاضعة للاستعمار الفرنسى ، وكذلك جمعية الثقافة الاسلامية فى مالى والتى أنشئت فروع لها فى فلتا العليـا وساحل العاج . وكان فى غانا جمعية تسمى المجلس الاسـلامى لشمال غانا .

وتتميز هذه الجمعيات ذات النشاط الشامل بدور سـياسى لعبته فى البلاد التى قامت فيها ، فكانت فى بداية الأمر من جماعات الضغط السياسى ثم شاركت الأحزاب الكبرى فى نشاطها السياسى ضد المستعمر كما سنرى بعد .

ومما يستحق الذكر أن هذه الجمعيات جميعـا قد وجدت سبيلها الى الوجود من خلال الاتجاهات الاستعمارية لنشر مبـدأ الحرية الدينية التى كانت تهدف منه اصلا الى التمكين للنشـاط التبشيرى، فلم تجد حكومات الاستعمار بدا من الترخيص للجمعيات الاسلامية بممارسة نشاطها ولكنها فى نفس الوقت الذى أخـذت تمكن فيه للارساليات التبشيرية منعت هذه الجمعيات الاسلامية من الاتصال بالعالم الاسلامى الخارجى أو تلقى المعونات منه .

وحينما بدأ الأزهر ووزارة الأوقاف فى الخمسـينات اقامة الصلات مع هذه الجمعيات لقى المبعوثون المصريون العنت والمقاومة من سلطات الاستعمار وما تزال ذكرى بعثة الأزهر الأولى الى كل من زنجبار فى شرق افريقية ونيجيريا فى غرب افريقية عالقة بأذهان الناس هناك ، ويتحدث الناس بما لاقاه فضـيلة الشيخ الدكتور محمد الفحام عند زيارته لنيجيريا من تحديد اقامة وأمر بمغادرة البلاد ومنع من التحرك .

وبانتهاء الاستعمار انطلقت هذه الجمعيات الاسلامية تمارس نشاطها بصورة أفضل فى ظل الاستقلال ، ولكن ظلت السياسة التى وضعها الاستعمار مسيطرة على الاتجاهات الحكومية فى كثير من البلدان الأفريقيـة ولكن بصـورة أخف مما كانت عليه فى العهـد الاستعمارى .

ولاكتمال صورة انشطة الجمعيات الاسلامية نستعرض ماتقوم به بعض هذه الجمعيات ، ففى المدن الكبيرة حيث تكثر وتتعـدد الجمعيات نجد أن أهم ما يتميز به نشاطها الى جانب انشاء المدارس والمساجد هو اقامة الاحتفالات الدينية ولكن بصورة مخالفة للصورة التقليدية لهذه الاحتفالات الدينية والتى تقام فى قصـور الأمراء والرؤساء أو التى يقيمها رجال الصوفية .

فالجمعيـات تحيى الاحتفالات الدينيـة بالخطب والأحاديث الدينية التى يلقيها المثقفون من أعضاء هذه الجمعيات أو يدعى اليها مثقفون من غير هذه الجمعيات وقد يكون المحاضرون من المسلمين الوافدين من دول أخرى للعمل فى تلك البلاد ، وفى كثير من الأحيان ينشـد أبناء المسلمين الذين يتعلمون فى المدارس اناشـيد دينية ويقدمون تمثيليـات قصيرة عن بعض الشخصـيات أو الأحداث الاسلامية الهامة ، وتكون هذه الاحتفالات فرصا للجمعيات لجمع التبرعات واشتراكات الأعضاء التى تمكن من تنفيـذ مشروعاتهم وبرامجهم .

والى جانب الأنشطة السالفة الذكر التى تقوم بها الجمعيات المحلية نجد أن الجمعيات ذات الطابع الاقليمى تمارس نوعين هامين من النشاط :

أولهما : المؤتمرات السنوية والدورية التى تعقدها لتتدارس فيها شئون الدين ومشاكل المسلمين .

والثانية : عقد الصلات مع العالم الاسلامى الخارجى مثل ماتفعل جماعة نصر الاسلام فى نيجيريا والاتحاد الثقافى الاسلامى فى المناطق المتكلمة باللغة الفرنسية .

ولجماعة نصر الاسلام فى نيجيريا التى انشأها المرحوم أحمدو بللو نشاط آخر متميز فى مجال الدعوة الاسلامية فى المناطق التى ما زالت تسودها الأديان التقليدية حيث ترسل المرشدين الى تلك المناطق النائية التى تسكنها جماعات لم تعتنق الاسلام ليعمل هؤلاء المرشدون على تأليف القلوب وادخال هذه الجماعات فى دين الله . وقد نشأت مؤخرا منظمات للطلاب والشباب بدأت على شكل جمعيات اسلامية فى المدارس والكليات ثم تحول بعضها كما هو الحال فى نيجيريا الى اتحادات كبيرة تشمل جميع الطلاب المسلمين فى الدولة كلها ، وكان تكوين مثل هذه الجمعيات منطلقا هاما فى الحياة الاسلامية بأفريقية اذ أن أعضاءها سرعان ما تخرجوا وأصبحوا يحتلون الوظائف والمناصب ويكونون ظهيرا هاما للوجود الاسلامى ، وكيانا ثابتا للمسلمين فى أوساط المثقفين .

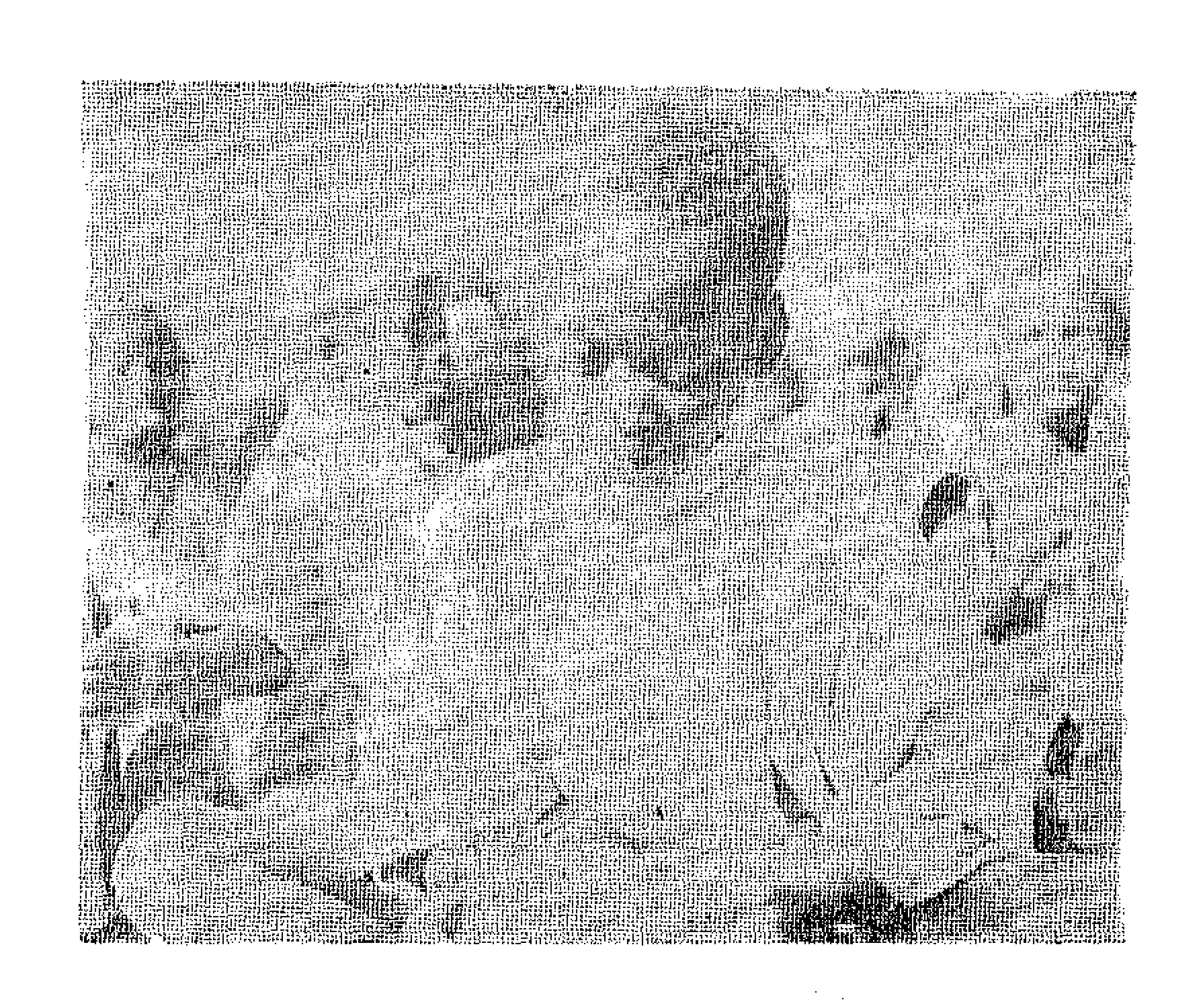
أوضاع التعليم الاسلامى

يعتبر استمرار التعليم الاسلامى من المظاهر الرئيسية للوجود الاسلامى فى افريقية، ولئن كان الاستعمار قد حاول بشتى الوسائل القضاء عليه أو اضعافه الا أنه استمر قائما رغم تلك المحاولات ، ولقد استمر التعليم الاسلامى بصورته التقليدية التى كان عليها منذ عهد ما قبل الاستعمار فى أوائل القرن الماضى بسبب سياسة العزل الثقافى التى اتبعها المستعمرون والسياسة السلبية تجاهه .

فقد استمر الكتاب أو الخلوة قائما فى صورة معلم أو ألفا أو فقير يجتمع حوله الأطفال من أبناء مسلمى الحى أو القرية يقرأون القرآن فى الواح خشبية يحررها لهم الشيخ بخط كوفى ثم يتركون للحفظ لتقرأ مجموعة أخرى حتى اذا انتصف النهار انصرفت



تلاميذ فى الكتاب (كاتسينا ـ نيجيريا)



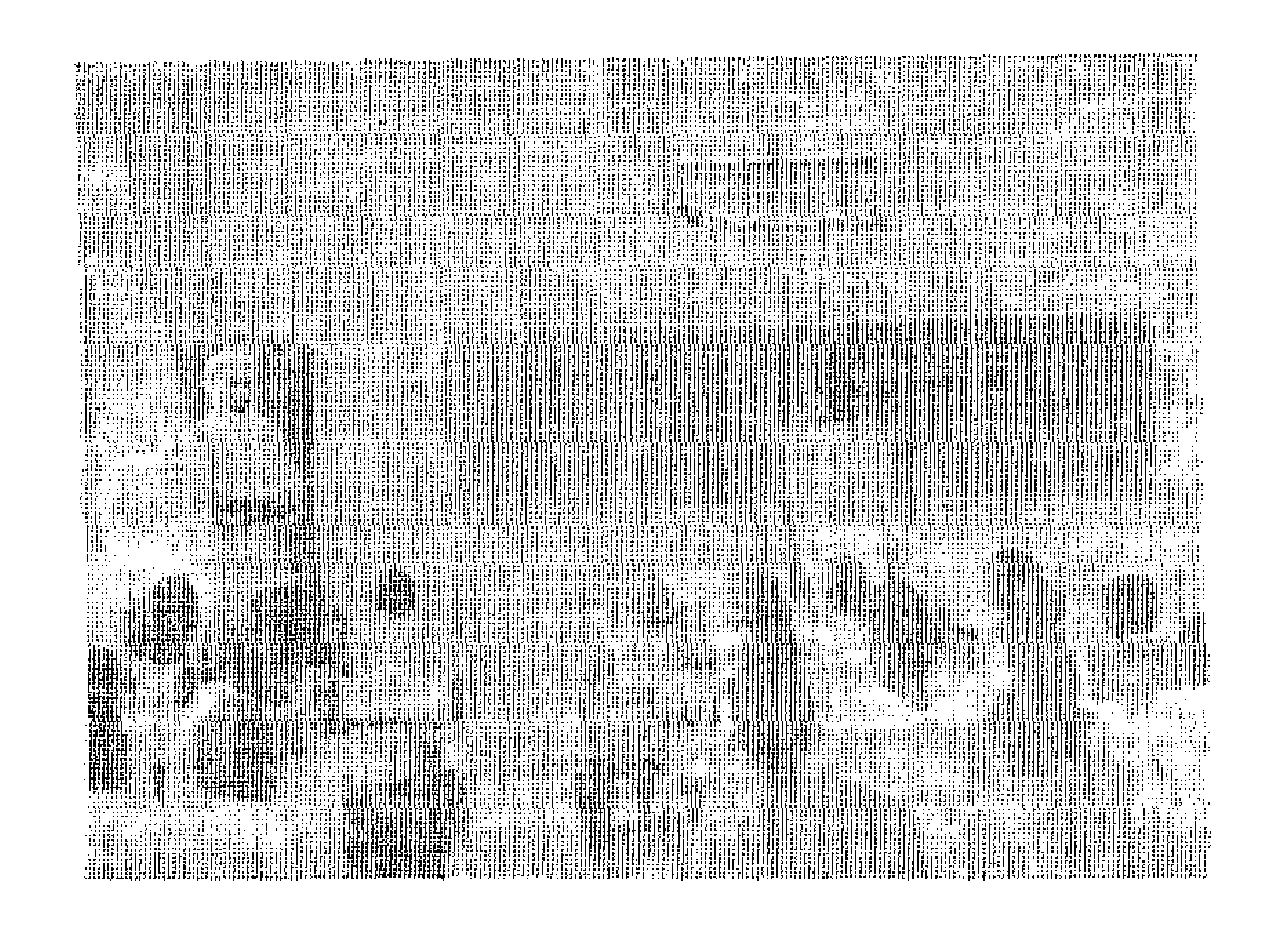
طفلة وطفل يقرآن القرآن فى اللوح الخشبى
(نيجيريا الشمالية)

مجموعة الصباح لتأتى مجموعة المساء وتعقد هذه الكتاتيب والخلوات اما فى بيوت المعلمين أو فى مكاتب خاصة أو حتى تحت شجرة فى الخلاء أو فى ظل حائط بحارة أوفى أى مكان يتيسر فى اجتماع الأطفال بمعلمهم ، ويعنى الآباء بارسال أبنائهم وبناتهم الى هـذه الكتاتيب والخلوات لحفظ قدر من القرآن الكريم والحديث النبوى والتعرف على أساسيات العبادات والسيرة وقليل من الفقه والشريعة حتى يمكنهم ممارسة شعائرهم الدينية ومتابعة حياتهم الاسلامية .

واذا ما اظهر الطفل تفوقا فى الحفظ والفهم فانه يتابع دراسته فى مدرسة اسلامية هى أكبر من الكتاب والخلوة حيث يقسم الأطفال فيها الى صفوف حسب مستواهم ينتقلون فيها من صف الى صف من الأدنى الى الأعلى حتى اذا أتم دراسته فى ثلاث سنوات أو أربع وقد تصل فى بعض هذه المدارس الى سبع سنوات يجاز للتدريس فى الكتاب أو الخلوة أو مدرسة اسلامية أولية أو ابتدائية .

ويعتمد تمويل الخلوات والكتاتيب وكذلك المدارس الاسلامية الصغرى على ما يدفعه الآباء من مصروفات لأبنـائهم أو ما يجريه التجار والأغنياء من صدقات وتبرعات للمعلمين والمشـايخ ، ثم بدأت هيئات الادارة المحلية تمنح اعانات بسيطة لبعض هذه المدارس وبخاصة فى البلاد التى بها أغلبية اسلامية مثل شمال نيجيريا أو ذات الحكومات الاسلامية مثل الصومال مما رفع مستوى بعض هذه المدارس الاسلامية الى مستوى يقترب من مستوى المؤسسة التعليمية الحديثة .

وفى فترة ما بين الحربين بدأ انشـاء مدارس اسـلامية على مستوى أعلى من مستوى التعليم الأولى والابتدائى نتيجة لضغط المسلمين على سلطات الحكم الاستعمارية التى بدأت تغير سياستها الى سياسة التسليم لبعض الرغبات الشعبية فى محاولة لاستمالتها الى صف الحكم الاستعمارى ، فانشئت فى كانو مدرسة الشريعة



فصل فى مدرسة اسلامية نظامية
(موبتى ـ مالى



طفل وطفلة يقرآن القرآن فى اللوح الخشبى (نيجيريا الشمالية)

الكبرى ثم مدرسة العلوم العربيـــة اللتان بدأتا تخرجان قضـــاة الشريعة ومعلمى اللغة العربية والدين الاسلامى ومدرسة تمبكتو العربية فى مالى لنفس الغرض ، وتتابع انشاء مثل هذه المدارس مثل انشاء المعهد الدينى فى زنجبار والمدارس الوطنية فى الصومال وبدأت هذه المدارس تأخذ بمناهج الأزهر وتدرس فيها كتب التعليم المستخدمة فى مصر أو المغرب او السودان .

ولقد لعبت هذه المعاهد الاسلامية دورا هاما فى تكوين مجموعة من المثقفين على شيء من العمق فى المعرفة بالثقافة الاسلامية أمكن لبعضهم التوصل الى مراكز ووظائف رئيسية فى بلادهم .

ومما يستحق الذكر عند التحدث عن التعليم الاســلامى فى افريقية وبخاصة فى غرب افريقية : أن المسلمين فى المناطق التى بها أغلبية اسلامية أو نسب عالية من المسلمين تمسكوا بالحفاظ على اسلام أبنائهم وذلك بالامتناع عن ادخالهم فى المدارس المدنيـــة أو التبشيرية التى انشأتها السلطات الاستعمارية خشية أفساد دين أبنـــائهم أو التـــأثير عليهم بما يجعلهم يتركون دينهم ، وكان القليلون الذين يدخلون أبناءهم تلك المدارس انمـــا يسمحون لهم بذلك بعد أن يحصل هؤلاء الأبناء على قدر من التعليم الاسلامى فى الكتاتيب والمدارس الاسلامية النظامية .

ولكن هذا الاتجاه رغم حفاظه على اسلام المسلمين الا انه ادى كذلك الى الابقاء على التعليم الاســلامى واستمراره فى صـــورته التقليدية ، كما منع الكثير من أبناء المسلمين من تلقى التعليم المدنى الذى يؤهلهم للوظائف الحكوميـــة ومن ثم كانت معظم الوظـــائف والأعمال فى الحكومات والهيئات من نصيب العناصر التى تخرجت فى الارساليات التبشرية أو غير الاسلامية التى تهيأت لهـــم فرص التعليم العالى .

وبالاضافة الى التعليم الاسلامى الذى يعتمد على الجهود الفردية بدات الجمعيات الاسلامية منذ نشأتها ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تهتم بشئون التعليم وتنشيء المدارس على النمط الحديث فجمعيات أنصار الدين وأنصار الاسلام ونصر الاسلام فى نيجيريا وجمعية الأخوة الاسلامية فى سيراليون ـ قامت بانشاء العديد من المدارس التى تهيىء الفرص لأبناء المسلمين لتلقى التعليم النظامى كما انشأ الاتحاد الثقافى الاسلامى فى مالى وغينيا وأعالى الفلتا مدارس فرنسية عربية (Ecoles Fraco Arab) لتمكن المتخرجين فيها من الحصول على وظائف فى مجالات تتعامل رسميا باللغة الاجنبية المفروضة على الشعوب .

ولما شعرت الجمعيات بقلة الفرص المتاحة لأبناء المسلمين لمتابعة دراساتهم العالية فى الجامعات والكليات والمعاهد الفنية والمهنية بدأ انشاءمدارس تسير على النمط الحكومى لاتاحة الفرصة لأبنائهم للحصول على الثانوية العامة التى تؤهلهم لمراحل تعليم أعلى .

ولقد استمر الوجود الاسلامى فى مجال التعليم ايضا متمثلا فى الصلة القائمة مع مراكز الثقافة والتعليم الاسلامى فى الشمال الافريقى وغرب آسيا ، ففى العهد الاستعمارى على الرغم من القيود التى كانت تفرضها السلطات على السفر للدراسة ـ استمر توافد أبناء أفريقية الغربية والشرقية الراغبين فى التعليم الى القاهرة للدراسة فى الأزهر الشريف هاربين من السلطات الاستعمارية متسللين عبر الحدود الى السودان ومنها الى مصر ، كما اتجه أبناء افريقية الغربية وبخاصة من السنغال ومالى الى المغرب وتونس وليبيا للدراسة هناك ، وتخلف الكثير من الحجاج فى المدينة المنورة للانضمام الى مجالس العلم والالتفاف حول علماء الدين والحديث هناك الى أن تكونت جامعة المدينة المنورة فاتجه اليها بعض الطلاب

الافريقيين لمواصلة دراستهم بها ، وكان البعض يتخلفون فى السودان للدراسة فى أم درمان والخرطوم .

ويجدر بنا أن نذكر هنا الدور الهام الذى لعبه الأزهر الشريف فى الحفاظ على الصلة الثقافية قائمة مع شعوب القارة الأفريقية المسلمة وما كان للقاهرة من أثر بالغ فى نقل الثقافة الى غرب افريقية من خلال تجارة الكتب التى استمرت دون انقطاع حتى يومنا هذا .

أما عن التعليم الجامعى فلا توجد فى افريقيا جامعة اسلامية بالمعنى المفهوم لها ولكن توجد فى نيجيريا كلية كبيرة تابعة لجامعة احمدو بللو فى زاريا بنيجيريا تسمى كلية عبد الله بابارو للدراسات العربية والاسلامية بها قسم كبير للغة العربية وقسم للدراسات الاسلامية ، وتعتبر هذه الكلية هى أكبر مراكز الدراسات الاسلامية فى الجامعات الافريقية بعامة ، وهناك أقسام للدراسات العربية والاسلامية فى جامعتى ابادان ولاجوس ، وكذلك شعب للدراسات الاسلامية واللغة العربية فى جامعة غانا وجامعة سيراليون .

المستوى الاجتماعى والاقتصادى للمسلمين

يختلف المستوى الاقتصادى والاجتماعى للمسلمين فى أنحاء القارة الافريقية باختلاف طبيعة وجودهم الجغرافى ونسبتهم العددية بين سكان البلاد التى يعيشون فيها ، ويمكن القول بصفة عامة أن المناطق التى بها أغلبيات اسلامية كبيرة تتدرج فيها مستويات المسلمين من أدنى مستوى اقتصادى واجتماعى الى أعلاه ، بينما نجد مستوى المسلمين فى المناطق الأخرى تتفاوت بتفاوت نسبتهم العددية من جهة أو طبيعة الاعمال التى يقومون بها من جهة أخرى .

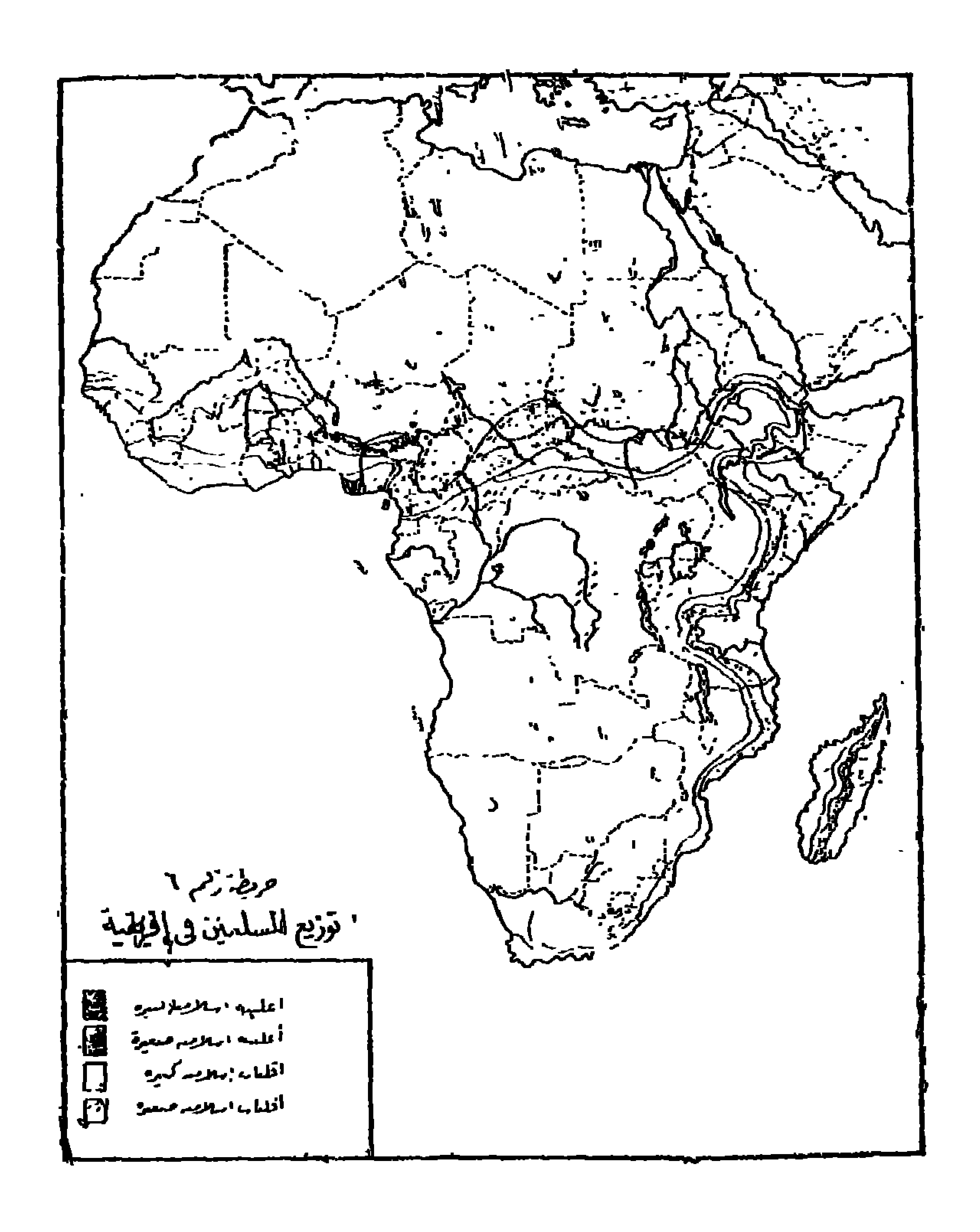
وتفصيل ذلك أننا نجد أوساط المسلمين فى بلاد كشمال نيجيريا ووسطها والنيجر ومالى وغينيا والسنغال فى غرب افريقية

والصومال وزنجبار والساحل فى شرق افريقية ـ نجدهم متعددى المستوى منهم صغار المزارعين وصغار الرعاة الى جانب كبار المزارعين وكبار الرعاة الذين يملكون آلاف الأفدنة أو الآلاف من رؤوس الغنم ، كما نجد المعدمين والفقراء الذين يعملون أدنى الأعمال جنبا الى جنب مع كبار التجار الذين يشتغلون فى رؤوس أموال ضخمة قد تصل الى الملايين ، ففى مثل هذه المجتمعات نجد جميع الطبقات من أرفعها الى أدناها مسلمين ولكنهم جميعا سواء فى أداء الشعائر وأمام الله .

وفى وسط رجال الدين نجد أيضا تفاوتا بين طبقة المعلمين الذين يحفظون القرآن ويدرسون فى الكتاتيب والخلوات والأئمة الذين يؤمون الصلاة فى المساجد وقضاة الشريعة فهؤلاء منهم المتوسطون وغالبيتهم فقراء يعتمدون على الرواتب أو ما يجرى عليهم من صدقات ، هذا بينما نجد زعماء الصوفية وكبار الخلفاء والمقدمين يعدون من أغنياء القوم نظرا لما يفرضونه على الأتباع من صدقات يؤدونها فى المواسم الدينية المختلفة وما يتلقونه من الأمراء وكبار التجار من أموال الزكاة التى تدفع لهم ، فيستخدمها أغلبهم فى التجارة وامتلاك المزارع والعقارات أو تربية قطعان الماشية والأغنام الكبيرة .

وشأن المسلمين فى ذلك شأن أى مجتمع اقطاعى متخلف ينتشر فيه الفقر والجهل والفوارق بين الطبقات غير أن التمسك بالاسلام يقيم بعض صور العدالة الاجتماعية فلا نجد جائعا ولا عريانا أو معدما اذ تتهيأ فى المجتمع للكل فرص الحياة الرئيسية ويمتاز البعض عن البعض الآخر فى رزقه .

واذا ما انتقلنا الى جهات أخرى لا يشكل المسلمون فيها أغلبية عظمى من السكان نجد صورتين للمستوى الاجتماعى .


خريطة رقم ٦
توزيع المسلمين في إفريقية
أغلبية إسلامية كبيرة
أغلبية إسلامية صغيرة
أقليات إسلامية كبيرة
أقليات إسلامية صغيرة

الأولى : صورة المسلمين المهاجرين الى المدن الكبرى مثل جماعات الهاوسا والفولاني التى هاجرت الى مدن جنوب نيجيريا وغانا وداهومى وتوجو وغيرها من مدن غرب افريقية وبعض مدن الكنغو وكذلك الديولا وهم الماندى الذين هاجروا الى مدن ساحل العاج وغانا وداهومى وليبيريا وكذلك عناصر السواحيلى والأفروشيرازيين الذين هاجروا من زنجبار وساحل افريقية الى مدن الداخل فى كينيا وأوغنده وتنزانيا وروانذا وبوروندى وشرق الكنغو ، فهؤلاء جميعا من التجار الذين يتاجرون فى الجملة والقطاعى ومنهم كبار تجار الاستيراد والتصدير ، ويحتلون فى هذه المدن مركزا اجتماعيا مرموقا ويعمل لهم فى المجتمع حساب خاص نظرا لمستواهم الاجتماعى الرفيع الذى اكتسبوه من خلال مستواهم الاقتصادي العالى .

والصورة الثانية : هى صورة العناصر التى دخلت الاسلام من ابناء الشعوب ولم يفت عليها الوقت الكافى لتأخذ مكانتها الاجتماعية ثم أتاها الاستعمار فعمل على اضعاف كيانها وحرمانها من الثقافة والتعليم وفرص التقدم الاجتماعى وهذه توجد فى القرى والمناطق النائية حيث نجد المسلمين يشكلون طبقة اجتماعية فقيرة تنقصها فرص العمل وفرص التعليم ولا تمتد اليها يد الاصلاح والخدمات .

هذا والمجتمع الاسلامى فى جميع انحاء القارة الافريقية مجتمع زراعى أو رعوى أو تجارى حيث لم يتطور المجتمع الأفريقى بعامة الى مجتمع صناعى وان وجدت صناعات محلية صغيرة فانها تعتبر حرفا وليست صناعة بمفهومها الواسع ، أما الصناعات الكبيرة فأغلبها احتكارات لشركات أجنبية لا تسهم فيها رؤوس الأموال الاسلامية أو الافريقية بعامة الا بنصيب ضئيل .

واذا انتقلنا الى جانب من جوانب الحياة الاجتماعية وهو الذى يتعلق بالوظائف الحكومية والأعمال الفنية نجد نصيب المسلمين فيها ضئيلا ، حتى فى المناطق ذات الأغلبيات الاسلامية نفسها حيث عمد

المستعمر الى عدم تهيئة فرص التعليم لأبناء المسلمين بينما تهيأت لغيرهم ، مما ادى الى قلة عـدد المسلمين الذين يمكنهم شـغل الوظائف والأعمال الفنية المختلفة واضطر ذلك الى تشجيع هجرة العاملين غير المسلمين من مناطق اخرى أو استيفادهم من خارج البلاد .

ولئن كان الفقر والجهل وانخفاض المستوى الاجتماعى سائدا فى أوساط المسلمين أكثر منه فى غيرها فانما يرجع ذلك أولا وقبل كل شىء الى الاسـتعمار الذى اتبع سياسة اضعاف الجبهـة الاسلامية فى افريقية بشتى الوسائل لكى لا تتهيأ لها فرصة الثورة على الاستعمار كما سبق أن أوضحنا عند تناول عوامل الهـدم الخارجية .

الوزن السياسى للمسلمين

على الرغم من تفاوت المستوى الاقتصادى والاجتماعى للمسلمين وعلى الرغم من أن الجبهة الاسلامية فى القارة الأفريقية ضعيفة فى شكلها نتيجة لانخفاض مستواها الاجتماعى والاقتصادى فى كثير من الجهات ، على الرغم من ذلك لعب المسلمون دورا هاما فى الحياة السياسية فى القارة الافريقية حيث يكون الاسلام عنصرا هاما فى الحياة ويكون المسلمون قاعدة كبيرة فى الشعب .

ولسنا بصدد تفصـيل الدور السياسى الذى لعبه الاسـلام والمسلمون فى كل جهة من جهات القارة الا أننا سنورد بشىء من الاختصار وعلى سبيل المثال ما كان للمسلمين من دور سـياسى خلال العهد الاستعمارى .

ويكفى أن نكرر ذكر الحقيقة الهامة : أن الاستعمار منذ دخوله الى القارة الافريقية وهو يضرب الاسلام والمسلمين بعنف وبشتى الوسائل حتى لا تكون جبهة قوية تواصل مقاومته ومحاربته .

يذكر لويس فى كتابه عن الاســلام فى افريقيــة المدارية (١) أن الشيخ محمد بن عبد الله حسن الذى رفع راية الجهاد مدى عشرين عاما فى جنوب اثيوبيا والصومال ضد الاســتعمار البريطانى من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٢٠ يعطينا أوضح مثل للموقف السياسى للمسلمين فى مواجهة الاستعمار ، كما يذكر أن البريطانيين اضطروا فى المناطق التى وجدوا الاسلام فيها ثابت الأقدام ، كما هو الحال فى نيجيريا الشمالية والسودان الشمالى أن يهادنوا النظم الاسلامية القائمة ويتركوها تحكم حكما محليا تحت توجيههم واشرافهم ولذا لم تقم فى نيجيريا الشمالية حركات مقاومة شديدة .

ولئن صح ما قاله عن الجهاد الاستعمار فى شرق افريقيــة فان ما قاله عن نيجيريا الشمالية والسودان غير صحيح ، ذلك أن ثورات الســودان ضد الحكم البريطانى معروفة كما أن نيجــيريا الشمالية لم تخل منذ سنة ١٨٩٧ ــ حينما ســيطر البريطانيون على شمال نيجيريا وأعلنوا الحماية عليها حتى قيام الحرب العالمية الثانية ــ لم تخل من حركات ثورية نشبت فى أنحاء شمال نيجيريا المسلم وقد ذكر الكثير عنها الوزير جنيد الصوكوتى فى كتابه الذى ضمنه تاريخ شمال نيجيريا منذ الاحتلال البريطانى حتى عــام ١٩٣٣ وتحدث فيه عن كثير من ثورات المدن والامارات ضد الحكم البريطانى والتى كانت الحكومة الاســتعمارية تعتبرها تمردا ، وتجــرد الحمــلات لاخمادها بالقــوة ، وتعتبر هــذه الحركات استمرارا لحركات الجهاد التى قام بها عثمان دن فديو فى القرن التاسع عشر (٢) .

---

(١) M. Lewiss , Tslam in Tropical Africa, O.U.P.1966 pp. 77 - 78.

(٢) الكتاب بعنوان « ضبط الملتقطات » وكاتبه الوزير جنيد الصــوكوتى هو الوزير الأول لسلطان صكتو مقر امارة المؤمنين فى نيجيريا الشمالية وهــذه الوظيفة وراثية من الوزارة فى عهد زعيم الجهاد عثمان دن فديو .

ويؤكد الكاتب الفرنسي فرويلش فى كتابه عن مسلمى افريقية السوداء الدور الذى لعبه المسلمون فى الحياة السياسية فى مناطق افريقية الفرنسية حينما كانت تكافح الاستعمار الفرنسى ، فقد كان لتكوين الاتحاد الثقافى الاسلامى فى السنغال وفروعه فى مالى وغينيا وساحل العاج وأعالى الفلتا وداهومى وتوجو أثره فى بداية حركة اصلاح اسلامية ارتبطت بالحركات السياسية فى ذلك الوقت ، فقد أيد الاتحاد حزب التجمع الديمقراطى الافريقى فى غينيا ومالى ، واتخذ صف المعارضة فى السنغال حينما انضم رجال الطرق الصوفية الى صف الاتحاد التقدمى السنغالى (١) .

ونضيف الى ذلك أن الرئيس سيكوتورى يؤكد انتماء التنظيم السياسى للاسلام حيث قال فى خطبة القاها فى ديسمبر ١٩٥٤ :

« ان الحزب الديمقراطى الغينى رغم أنه قد أخذ من الماركسية ورغم أنه نتاج نضال الحركة العمالية الا أننا نسير بالحزب فى الخط الاسلامى الواضح المعالم من أجل الانسانية والرخاء (٢) » .

ولعل من أهم ما ذكره الكتاب الغربيون عن صلة الحركات الاسلامية فى افريقية بالحركات الاسلامية فى الشرق العربى وارتباطها بالسياسة ما ذكره الكاتب الانجليزى توماس هودجكين فى مقاله عن الاسلام والحركات القومية فى غرب افريقية فى العدد الثانى من مجلة التاريخ الافريقى عام ١٩٦٢ حيث يقول أن حركات الاصلاح الاسلامية فى غرب افريقية قد تأثرت تأثرا واضحا بالحركة السلفية فى مصر والشرق العربى فقد انتقلت أفكار الشيخ محمد عبده ورشيد رضا وجمال الدين الأفغانى من خلال طلاب العلم فى الأزهر

(١) J . G . FROELICH, Les Musulmans de l ' Afrique Noir, paris, 1962 , pp. 311 - 315 .

(٢) نقلا عن : KEN POST; in The New States of west Africa, Penguin Books 1964 .

ونتيجة للاحتكاك مع العرب أثناء موسم الحج ومن خلال الكتب التى كانت تهرب الى بلاد غرب افريقية وكان تأثير هذه الأفكار واضحا ، حيث نشط ذلك قيام الحركات من خلال الصوفية مثل حركة المريدية فى السنغال بقيادة أحمدو بمبا (١٨٥٠م الى ١٩٣٧ م) والحمالية فى السودان الفرنسى (مالى من سنة ١٨٨٦ الى سنة ١٩٤٣ م) وقيام حركات اصلاحية صرفة على يد العلماء وأئمة الدين للمطالبة بالاصلاح التعليمى والدعوة الى احياء التراث الاسلامى فى غرب افريقية .

واذا ما انتقلنا الى افريقية الغربية المتكلمة بالانجليزية نجد حركتين هامتين كان لهما دورهما السياسى احداهما فى غانا حيث تكون مجلس مسلمى غانا الذى أسهم فى الكفاح مع الدكتور نكروما فى سبيل الاستقلال وحزب شعوب الشمال فى نيجيريا الذى كان يتزعمه المرحوم أحمدو بللو والذى كان يعتبر حزب الأغلبية العظمى فى نيجيريا وتآلف مع بغض الأحزاب الأخرى لقيادة نيجيريا نحو الاستقلال ، وحينما تزايد نشاط أحمدو بللو فى مجال الصلات مع العالم الاسلامى قامت المؤامرة الاستعمارية الصهيونية والصليبيةفى نيجيريا سنة ١٩٦٦ واطاحت به وبرئيس الوزراء الاتحادى المرحوم الحاج أبو بكر تافاوا باليوا من أجل سيطرة عناصر موالية للاستعمار والغرب والصهيونية على الحكم فى نيجيريا ـ ثم بدأت الحرب الأهلية وحركة انفصال الاقليم الشرقى تحت اسم بيافرا والتى احبطت بفضل تضامن أطراف الشعب النيجيرى من مسلمين وغير مسلمين من أجل الحفاظ على وحدة هذا القطر .

ولعل ما قام به الرئيس الأوغندى عايدى أمين مؤخرا من طرد الخبراء الاسرائيليين وما اتجه اليه آخيرا رئيس تشاد ، ليعد دليلا واضحا على أثر الوجود الاسلامى فى الحياة السياسية فى أنحاء القارة الافريقية .

خاتمـــة

نظرة الى الحاضر والمستقبل

فى ختام هذه الدراســة لماضى الاســلام وحاضره فى أفريقية يقتضينا الأمر نظرة موضوعية شاملة الى حاضر المسلمين فى القارة نستمد منها صورة المستقبل . فعلى الرغم من جوانب القوة التى يتميز بها الاسلام فى القارة الافريقية والمستمدة من الكيان العددى والاجتماعى للمسلمين . الا ان المسلمين كجبهة سياسية مازالوا يتسمون بالضعف ، الذى يرجع الى الجهل بالاســلام والمخاوف الموروثة ، والطائفية والتعصب التى تشوب علاقاتهم ، وضعف المساندة الخارجية لهم .

فالجهل بالاسلام فى حد ذاته جاء نتيجة للظروف التى مر بها المسلمون خلال الحكم الاستعمارى مما أدى الى كثير من الظاهرات التى كان لها أثرها على الجبهة الاسلامية وتتمثل فيما يلى :

١ ــ بقاء واستمراربعض العقائدوالشعائر التقليديةوالجاهلية فى اوساط المسلمين وبخاصة من أسلموا حديثا ولكن أســتمر ايمانهم ببعض المقدسات القديمة يشوب حياتهم الاسلامية .

٢ ــ ممارسة بعض رجال الطرق الصوفية لنفوذهم وسلطانهم على فئات المسلمين مما حجبهم عن التطور بما يلائم العصر وطبيعة الاسلام .

٣ ــ التمكين لبعض الايديولوجيات المنحرفة مثل الاحمــدية القاديانية ، والاتجاه الذى يدعو الى التلاؤم مع العصر Modernism أو الشيوعية أو المادية العربيه مما ادى الى انحرافات فى العقيــدة والسنة .

٤ ـ ترك الفرصة لاستمرار الدعايات المضادة وفعاليتها بين أوساط المسلمين وبخاصة من تثقفوا وتأثروا ذهنيا بالثقافات الاستعمارية والتبشيرية .

أما عن المخاوف التي تسود الجبهة الاسلامية فبعضها مخاوف ذاتية وبعضها عامة ، ولقد بدأت منذ العهد الاستعمارى نتيجة الضربة القوية ضد الوجود الاسلامى ، ولقد ازدادت هذه المخاوف حينما مكن الاستعمار للعناصر غير الاسلامية من السيطرة على الحكم والوظائف الرئيسية ، وورثت معظم الدول الافريقية ذات الاغلبيات الكبيرة ظاهرة سيطرة غير المسلمين على الحكم والسياسة مما جعل المخاوف تستمر حتى بعد الاستقلال حيث استشعر المسلمون الضعف امام القوى الحاكمة غير الاسلامية ، وحينما ظهرت قوى سياسية اسلامية ضربتها مؤامرات الاستعمار والتدخل الاجنبى بشدة مثل ماحدث فى نيجيريا فى انقلابات عام ١٩٦٦ التى اطاحت بالقيادة الاسلامية التى كانت قائمة هناك .

واذا امعنا النظر فى وضع الهيئات القائمة بالنشاط الاسلامى مثل الطرق الصوفية والجمعيات الاسلامية نجد أن تعددها الواسع يؤدى الى تنافس بينها قد تضيع معه فائدة العمل ، وقد ينحرف بالعمل الى ما قد يؤدى الى الضرر كما هو الحال فى التنافس لدرجة التنافر بين بعض زعامات الطرق الصوفية ، هذا فضلا عن عدم وجود التنسيق بين الجمعيات الاسلامية فى نشاطها مما يحرمها من القوة والاحترام واعتراف الحكومات بها ، ولئن كانت حدة هذه المنافسة وظاهرة التشتت قد بدأت تخف فى السنوات الاخيرة وبخاصة بعد أن اتجهت الجمعيات الى تنسيق جهودها من خلال مجالس مشتركة تضم مجموعات من الجمعيات تعمل معا فى تعاون وتضافر كامل .

أما الطائفية والتعصب فانها توجد فى صور مختلفة فالى جانب الطائفية النابعة من بعض قيادات الطرق الصوفية فان هناك تعصب اهل الطرق الصوفية ضد المثقفين ـ الامر الذى يعد استمرارا وانتشارا لفتنة الوهابية التى أثارها الفرنسيون فى مالى وغينيا

والسنغال فى الخمسينات الاخيرة من هذا القرن ، هذا فضلا عن القبلية التي تسود بعض المجتمعات وتجعل أبناء كل جماعة تعمل من أجل جماعتها فقط دون مد يدها الى الجماعات الاسلامية الاخرى فنجد أن كلا من الجمعيات تقتصر على أبنائها ولا تمد يدها للتعاون مع جمعيات كونتها جماعات أخرى ، بل ونجد بعض المجموعات البشرية تنظر الى المسلمين من جماعات أخرى على أنهم غير صحيحي الإسلام او على أنهم أقل مرتبة منهم ، وهذه الظاهرة وان كانت تخف تدريجيا فى الوقت الحاضر نتيجة لارتفاع مستوى فهم الاسلام الصحيح كدين المساواة والوحدة البشرية الا أن آثارها ما زالت قائمة فى جهات عديدة .

أما المساندة الخارجية التى تتمثل فى مساعدات الدول الاسلامية الكبرى ومراكز الثقافة الاسلامية فى العالم لمسلمى القارة فمن النظرة السريعة نجد انها لا تقارن بالمساعدات الخارجية التى ترد للارساليات التبشيرية والتى تمتاز بضخامتها وفعاليتها وبنائها على خطة مدروسة .

وبالنظرة الدقيقة الى هذه المساندة الخارجية لمسلمى القارة الافريقية نجد انها تتصف :

(أ) بأنها غير مخططة .

(ب) أنها تفتقد التنسيق بين الدول .

(جـ) أنها تقدم فى غالب الاحيان لجهات لا تستحقها .

فالمعونات التى تقدمها الدول العربية الاسلامية مبنية على اساس شخصى بحت وتعتمد على الاجتهاد الشخصى والاتصالات المباشرة التى يقوم بها رجال الجمعيات الاسلامية مع هذه الدول ، ولذلك نجد أن هناك جمعيات الاسلامية عديدة ـ رغم فعاليتها وجديتها فى العمل ـ لا تحصل على أى معونات ، بينما تتركز المعونات لجمعيات ومدارس تتسم بالطابع التجارى غير الهادف .

ومما يستحق الذكر فى هذا المجال أيضا أن أقسام الدراسات العربيــة والاســلامية التى تخرج المســتعربين ومدرسى العــلوم الاسلامية لا تتلقى أى عون من الدول العربية والاسلامية بينما نجد الدول الاوروبية تغدق الكثير لنشر لغاتها وثقافاتها من معونات مالية وفنية ومنح دراسية وأساتذة وفنيين ومعلمين .

ولكن لا يجب أن يفوتنا أيضا أن نذكر فى هذا المجال الكثير من الجمعيات والهيئات الاسلامية لا تتجه الى طلب المعونات الخارجية بسبب المخاوف التي تسودها بما يقتضى أن يكون العمل لمعاونتها بادئا من جانبالدول العربية والاسلامية .

أما اذا نظرنا الى المستقبل بعين الواقع نجد أن العالم الاسلامى بدأ يتخذ فى السنوات الأخيرة مكانته فى العالم وبخاصة بعد تعدد المؤتمرات الاسلامية التى تدارست فيها الدول الاسلامية مشاكلها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وأخذت تبحث وســائل حل هذه المشكلات ، ثم كان مؤتمر القمة الاسلامى الذى أعقب حرب اكتوبر قمة هذه المؤتمرات وكانت من أهم نتائجه انشاء صندوق العون الاسلامى وبنك التنمية الاسلامى مما سيكون له أثره الفعال فى تنمية الدول الاسلامية تنمية اقتصادية واجتماعية وثقافيــة لترفع من مكانتها الى مصاف الدول المتحضرة أو النامية فى العالم .

الى هذا الأمل ينظر المسلمونونحو هذا الهدف يتجهون ليثبتوا كفاءتهم كمسلمين فى تطبيق تعاليم دينهم كطريق متكامل للحيــاة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فضلا عن الجانب الوجدانى والروحى مما يعيد الى أرض الاسلام امجادها القديمة ولتســهم الشعوب الاسلامية فى تحقيق الرخاء والسلام العالمى .

مطابع المختار الإسلامي

المؤلف :

محمد جلال عباس ..

* استاذ الجغرافيا ـ ورئيس قسم الآداب والعلوم الاجتماعية بكلية الدراسات العالية بكانو ـ نيجيريا .

وشـغل هـذه المناصب :

* رئيس قسم الشـئون الأفريقيـة للجنة العليـا للعـلاقات الثقافية ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ .

* الملحق الثقافى بسفارة مصر فى مالى ورئيس البعثة التعليمية هناك ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ .

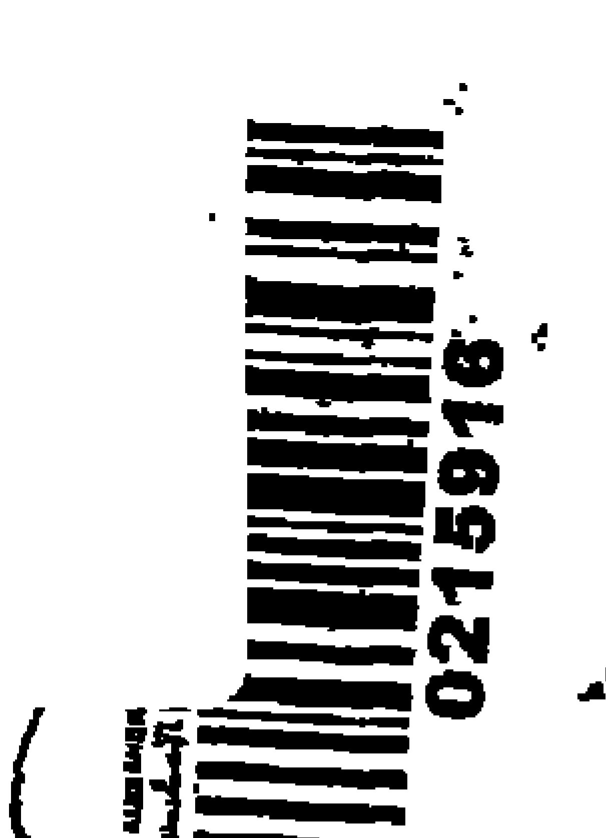
* مدير المركز الثقافى العربى فى نيجيريا ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢ .

واشترك فى هذه اللجان :

* عضو لجنة تقريب المناهج التعليمية فى السودان .

* مسـتشار لجنة مناهج التاريـخ لمدارس المعلمين فى غـرب افريقيا .

* رئيس لجنـة الجغرافيـا البشرية والتطبيقيـة بالجامعـات النيجيرية .



مطابع المختار الاسلامى